

دراسة نفسية

طارق أحمد حسن

الخير والشر

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

حسن، طارق أحمد

الخير والشر: دراسة نفسية / طارق أحمد حسن

.ـ الإسكندرية: طارق، أحمد حسن، ٢٠١٤

٢٥٦ص ، ١٤×٢٠سم

الترقيم الدولي ٦ ٢٠٠٠ ٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١ـ الفلسفة

أـ الخير والشر

١١١,٨٤

رقم الإيداع/ ١٦٣٥٠ التاريخ: ٢٠١٤/٨/٢٥

التنسيق والجمع الألكتروني والتدقيق اللغوي/ محمد السخاوي
موبايل ٠١٠٦٣٠٨١٧١٨



دراسة نفسية

طارق أحمد حسن

إهداء

إلى حفيدتى الصغيرة نور...
وإلى كل جيلـــها، الذين ...
يستحقون منّا أن نبحث لهم
عن حياةٍ أفضل.

طارق أحمد حسن

المحتويات

مقدمة

يقول ستيفن هوكنج في كتابه (التصميم الكبير) "**إن المشاهداتِ التي نبني عليها نظرياتنا تعتمدُ دائماً على عدسةٍ مثبتة فى البنية التفسيرية داخل عقولنا.**"

مهمة هذا الكتاب هى تعديل شرط أساسى مثبت فى العدسة التى تنظر بها إلى العالم. هذا الشرط يتلخص فى أنك لا تستطيع أن تحدد طريقك بمفردك، وأن هناك جهةً ما تنوب عنك في أداء هذا الدور.

إنك إذا نزعتَ هذا الشرط، فربما تكتشف أن قوى القهر والتسلُّط قد خصَّتْ نفسها باحتكار معرفة ما يضرك وما ينفعك. وأنها ـ بحجة حمايتك ـ قد قهرتْ إرادتك، وسرقتْ حريتك،

وحكمتْ عليك بأن تظل مقيداً إلى الأبد، ثم شغلتك بقضايا جانبية لا طائل من ورائها. وهى ما كانت لتنجح فى ذلك لولا مساعدتُك القيمة، التى أنت مسئول عنها فى كل الأحوال.

إنها تستندُ فى شرعية وجودها على تأييدك أو حتى لا مبالاتك. وإن إيمانك بقدراتك، وتحررك من خوفك، وثقتك فى نفسك، هو الذى سوف يُثبتُ أن الوقت قد حان لنزع الشرعية عن أكبر جريمة فى التاريخ، جريمةِ قهر الإرادة الإنسانية. وحينما يفقدُ القهرُ شرعيته، فإنه سوف يموت بالسكتة القلبية.

من أجل ذلك، وحتى لا تختلطَ الأمور مرةً أخرى، لابد من الوصول إلى تعريف جديد للخير والشر، مبنى على فهمٍ أفضل للإنسان بشقيه البيولوجى والثقافى.

وفى كتابنا (عصرُ الحكمة) ناقشنا فلسفة الأخلاق الإنسانية، التى ترى أن الإنسان يستطيع أن يضع معاييره الأخلاقية، ويكون فعالاً فى عملية تحديد مصيره، وتحقيق ذاته. ونحن فى هذا الكتاب نقدم دراسة نفسية تدعمُ هذا الرأى.

تعتمد هذه الدراسة بصفة أساسية على نظرية التطور لتشارلز داروين، ونظرية التحليل النفسى لسيجموند فرويد، والكثير من المكتشفات العلمية الحديثة. ورغم ما تتمتع به النظريتان من مكانة علمية هائلة إلا أنهما قد ارتبطتا فى ذهن البعض بالتناقض مع الإيمان باللّه سبحانه وتعالى وحكمته فى الكون.

ونود أن نؤكد أن فهم الإنسان بطريقة علمية، واستكشاف القدرات الهائلة التى وهبه اللّه إياها، لايتناقض مع الإيمان العقلانى المستنير الخالى من الأوهام.

١
الطبيعة الإنسانية

على مدار التاريخ وفى خضم الكم الهائل من الأفكار والمعتقدات المختلفة، كان يخرج دائماً صوتٌ خافت من بين الضجيج، يقول إن حلّ لغز الإنسان موجودٌ داخل الإنسان نفسه، وأنه لا فائدة من البحث بعيداً، فالإنسان قد جاء إلى الدنيا حاملاً سره معه.

لهذا فقد أشار الكثير من الفلاسفة إلى أهمية فهم الطبيعة الإنسانية كأساس ضرورى لفهم سلوك الإنسان وأخلاقه وقِيَمهِ ومعتقداته.

ففى القرن الرابع قبل الميلاد قال أرسطو: "إن الخير هو العمل والنشاط وفهم الإنسان لنفسه واستخدامه لقدراته."

وفى القرن السابع عشر قال باروخ سبينوزا فى كتابه (علم الاخلاق) ترجمة جلال الدين سعيد: "الخير هو الوسيلة التى ندنوا بها أكثر من نموذج الطبيعة الإنسانية. والشر هو ما يعوقنا عن بلوغ

ذلك النموذج."

وفى القرن العشرين قال سيجموند فرويد فى كتابه (الموجز فى التحليل النفسى)، ترجمة سامى محمود على، ص ٢٥: "نحن نفترضُ أن الحياة النفسية هى وظيفة لجهاز موجود فى مكان ما داخل الإنسان."

وبعد ذلك قال جون ديوى فى كتابه (الطبيعة البشرية والسلوك الإنسانى)، ترجمة محمد نجيب النجيحى: "ما لدينا من علم عن الطبيعة البشرية هو علم بدائى، بمقارنته بما لدينا من معلوماتٍ عن العلوم الطبيعية الأخرى."

ثم يقول فى ص٣٠٩: "الأخلاق هى أقربُ الأمور إلى الطبيعة الإنسانية."

وفى ص٣٣٤ يقول: "العلوم الطبيعية وتطبيقاتها التكنولوجية تطورتْ تطوراً عالياً، بينما بقى

العلم الأخلاقى متأخراً. وكما ننظر إلى الحروب الدينية فى الماضى على أنها أقل أهمية من المكتشفات العلمية، فإننا ربما فى المستقبل ننظر إلى حروب هذا الزمان، باعتبارها أقل أهمية من تطور علم خاص بالطبيعة الإنسانية، لم يكتمل حتى الآن."

وفى النصف الثانى من القرن العشرين قال إريك فروم فى كتابه (المجتمع السوى)، ترجمة محمود منقذ الهاشمى، ص١٧٧: "يمكن القول أن مفهوم الصحة النفسية يترتب على شروط الوجود الإنسانى الصميمة."

وفى كتابه: تشريح التدمرية البشرية، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص١٧٧، يقول: "إن تكوين الإنسان البيولوجي هو مصدر معايير العيش."

وفى كتابه (الإنسان من أجل ذاته)، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى، ص٤١، يقول: "إن مصادر

المعايير الأخلاقية موجودة فى طبيعة الإنسان ذاتها"

وفى كتابه (الدين والتحليل النفسى)، ترجمة فؤاد كامل، ص٦٨، يقول: "هناك قوانين ثابتة فُطرتْ عليها الطبيعةُ الإنسانية. وإن هذه القوانين لا يمكن أن تُنتهك فى أية حضارة دون أن تصيبَ الإنسان بضرربالغ."

لدينا إذن مُطلقٌ جديد قديم يمثلُ قاعدة إيمانية نستطيع أن نبنى عليها وهو إيمان عقلى له أسباب موضوعية. هذا المطلق أسماه أرسطو فهم الإنسان لنفسه. و أسماه سبينوزا نموذج الطبيعة البشرية. وأسماه فرويد الجهاز النفسى. وأسماه ديوى الطبيعة الإنسانية. و أسماه إريك فروم مرةً شروط الوجود الإنسانى الصميمة. ومرةً ثانيةً تكوين الإنسان البيولوجى. ومرةً ثالثةً طبيعة الإنسان.

الطبيعة الإنسانية رصدتها الفلسفة بطريقتها الخاصة. وكذلك رصدها الدين والأدب والفن. وأخيراً رصدها العلم. وخلاصة نتائج كل هؤلاء جميعاً موجودة الآن بين أيدينا. وهناك حقيقة مؤكدة هى أن أيّاً من هؤلاء منفرداً لم يحل اللغز. والدليل على ذلك موجود على أرض الواقع. وهو أن الظلم ما زال منتشراً فى الأرض، بالإضافة إلى التدمير والخراب والقلق والاكتئاب والشك والهلاوس والارتياب، والانحراف والكذب والخداع والتسلُّط والقهر.

وتكثر هذه الأمور بصفة خاصة بين هؤلاء الذين يدَّعون أنهم يملكون مفاتيحَ الإيمان أو مفاتيحَ المعرفة، ممن يعتنقون أفكاراً عجزوا عن تطويرها، حتى وصلوا إلى قناعة مفادُها أن الإكثار من الظلم هو الطريقُ إلى العدل، والإكثارَ من الإفساد هو الطريقُ إلى الإصلاح.

كان البحث فى الطبيعة الإنسانية كثيراً ما يصطدمُ بصعوباتٍ بالغة، حتى صار من الضرورى الانتظار حتى تتقدمَ كلُّ العلوم المختلفة، وتصل إلى درجة عالية من التطور والرُّقِى، ثم تصب فى النهاية فى مصلحة رؤية جديدة تتناول الطبيعة الإنسانية.

وفى القرن العشرين حدثتْ ثلاثُ ثورات مهمة فى علم النفس: الأولى هى ظهور علم النفس السلوكى الذى يُصوِّر النفسَ من الخارج. والثانية هى ظهور التحليل النفسى الذى يُصوِّرها من الداخل. والثالثة هى ظهور علم النفس الإنسانى الذى يمكن اعتباره رؤية متقدمة من التحليل النفسى ترتكز على سعى الإنسان للحرية ورغبته فى تحقيق ذاته.

وفى نهاية القرن العشرين كان التقدُّم الذى حدث فى مجالى تكنولوجيا المعلومات والهندسة البيولوجية قد قدم للعلماء عدساتٍ جديدة يمكن

استخدامُها فى دراسة النفس البشرية. وأدى ذلك إلى ظهور علم النفس الإدراكى الذى يتعامل مع عقل الإنسان باعتباره جهاز كمبيوتر، وكذلك علم النفس التطوُّرى الذى يربط ما بين علم النفس والبيولوجيا.

العلماء حملوا عدساتِهم ولفوا وداروا حول النفس وصوروها من كل اتجاه. واستخدموا خلاصة ما توصلتْ إليه العلوم الأخرى لكى يحصلوا على أوضح صورة. ولكن النقطة الأهم في الصورة مازالت غيرَ واضحة!. فما الذى يجعل المظالم تزداد رغم التقدم العلمى؟! وما الذى يجعل الاخلاق تتدهور؟! وما سرُّ عدم اليقين أو اليقين الزائف الذى نعيشه؟! ما الذى يجعل الشر يرتدى رداءَ الخير ويتسلل إلى عقول وقلوب البشر ويجد من يتحمس له ويدافع عنه؟!.

العلم لم يحل كاملَ اللغز ... فالجزء الأهم من اللغز ما زال غامضاً. والعلماء يؤكدون أن المستقبل سيكون لعلم نفس جديد يبحث فى الاخلاق؛ لأن الاستخفاف بالأمور الاخلاقية كان منبعه معرفتنا الضئيلة بها.

وفى السنوات الأخيرة لم تعد المعرفة تشكل عقبةً كبيرةً؛ بل على العكس من ذلك صارت آفة هذا الزمان هى الزحام. وأقصد بالتحديد زحام المعلومات والآراء والأفكار والتبريرات والنظريات، ولكل منها من يدافعون عنها بشدة؛ إما لقناعة حقيقية أو لقناعةٍ زائفة، فليس كل ما يلمعُ ذهباً. وظهرت مشكلاتٌ من نوع جديد. فإن استخراج الحقائق من بين الضلالات قد أصبح أمراً فى غاية الصعوبة. ناهيك عن ترتيبها، وربطها بغيرها من الحقائق، واستخلاص النتائج، حتى الوصول إلى لحظة إبداع حقيقى، يتمثل فى إضافة فكرة ذات

قيمة فعلية.

أعتقدُ أننا اليوم نملك وسائل للفهم الصحيح والحاسم للطبيعة البشرية. وبين أيدينا خلاصة مجهوداتِ وخبراتِ البشر فى هذا المجال منذ بدءِ التاريخ حتى الآن. إن المستحيل قد أصبح اليوم ممكناً.

هيا بنا نعيد ترتيب الحقائق مرةً أخرى؛ القصة تنقسم إلى جزئين: جزءٍ سهلٍ توصل العلماء إلى كشفه بالفعل، ولكنه مبعثر وسط الزحام، ويحتاج إلى إعادة ترتيب. وجزء صعب يحتاج إلى حلول إبداعية.

٢

التكيُّف البيولوجى

والتكيُّف الثقافى

في الوقت الذي كان فيه علماء النفس يبذلون محاولاتٍ مضنية للتوصل إلى طريقة واضحة لحل لغز الإنسان؛ جاء مفتاح الحل من مكان آخر. فقد قدم لنا كونراد لورنتس عالِم الحيوان الحائز على جائزة نوبل في الطب عام ١٩٧٣ هديةً ثمينةً في كتابه الشهير (العدوانية)، عندما قال: "إن مشكلة الإنسان تتلخص في فقدانه الكوابح الغريزية لعدوانيته التي حلت محلها الكوابح الخُلُقِيَّة والحضارية. ولكن الأخيرة لم تصل بعد لمرحلة الفاعلية كما يحدثُ في حالة الحيوان. وهكذا فنفس العوامل التي ارتقتْ بالإنسان فوق كل الكائنات الحية، هي نفسُها التي وضعته في وضعية محفوفة بالمخاطر. إن فقدان التكيُّف البيولوجي قد حدث قبل الوصول إلى تكيُّفٍ حضاري مضمون. إن الحيوانات انطلاقاً من نظرية التطور قد طَورتْ خلال مسيرتها الطويلة ميكانيزمات فطرية كابحة، تمنع انتهاء العنف

الموجه ضد أفراد من نفس النوع بالقتل الذي يهدد بانقراض النوع. بينما لم يُطَور الإنسان مثل هذا الميكانيزم الكابح، وصار مطلوباً منه أن يحل تلك المشكلة ثقافياً، باستخدام عقله الحر وتجاربه وخبراته."

ما يقصده لورنتس هو أن الطبيعة تقود الحيوان حتى النهاية. لذلك فإنها قد زودته بوسائل تحد من عدوانيته ضد أفراد نوعه، مما يحميهم من أن يقضى بعضهم على بعض. ولكن الطبيعة لم تفعل نفس الشيء مع الإنسان إذ أنها قد تركته فى منتصف الطريق لكى يدبر حاله باستخدام إرادته الحرة وإمكانياته الهائلة. إن الحيوان لديه وسائل غريزية لكبح عدوانيته. ولكن الإنسان فاقدٌ لتلك الوسائل، وعليه أن يصل إليها بنفسه ثقافياً، لكى يحمى نفسه من نفسه. ولكن الإنسان للأسف لم يصل حتى الآن لهذا المستوى من التحضر

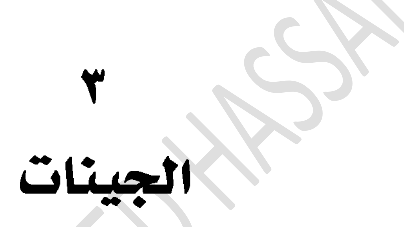
والرقى. وهكذا فإن قوةَ الإنسان هى أساسُ ضعفه. إنه الحيوان الوحيد الذى يقوم بعمليات إبادة جماعية ضد أفراد من بنى جنسه. الإنسان الذى نعرفه، المشغول بالقهر والتسلط والحروب والدمار، لم يستخدم بعدُ القدراتِ الهائلة التى وهبتها له الطبيعة.

وأعاد العالم ريتشارد دوكينز تأكيد الفكرة فى كتابه (الجين الأنانى)، ص٣٠٩، عندما قال: "الإنسان يختلف عن أى كائن متطور فى شىء واحد فقط هو الثقافة. "

أما إريك فروم فإنه يضيف أن الإنسان يفتقرُ إلى التكيُّف الغريزى مع الطبيعة، ولا يعمل فقط بالآليات الممنوحة وراثياً. وحياة الإنسان لا يمكن أن تُعاش بتكرار نموذج معين. وهو فى حالة من عدم التوازن، ولكنه يدرك ذاته، ويشعر ويفكر ويفهم، ويستطيع أن يتطور ويخلق عالمه بنفسه.

وهو بدعم من ثقافته يوجد نوعاً من الاستقرار النسبى. ولكن فى عملية البناء الذاتى للإنسان ينقلب هذا الاستقرار مرةً بعد مرة.

نستنتج من كل ذلك أن الطبيعة قد زودت الإنسان بجهاز نفسى ثقافى ينمو بيئياً واجتماعياً، لا جينياً وراثياً. وأن على هذا الجهاز مسئولية إتمام العمل الذى بدأته الطبيعة. وأن عجز هذا الجهاز عن أداء دوره كاملاً هو سبب كل معاناة الإنسان.



٣
الجينات

يقول تشارلز داروين: "كلما وُلدَ عددُ أكبر من الكائنات الحية كان احتمالُ نجاتِها أكبر. ومع ذلك يبقى هنالك المزيد من الصراع بين الكائنات من أجل البقاء على قيد الحياة. وتحت هذا التعقيد والاختلاف في ظروف المعيشة، يكون هناك فرصة أفضل للعيش فقط بالنسبة لهؤلاء المنتخبين من قبل الطبيعة. هؤلاء يجدون أن فرصتهم للبقاء والتكاثر تعتمد على قدرتهم على التطور والارتقاء في شكل جديد."

الانتخاب الطبيعى هو الاختبار الحقيقى على أرض الواقع للصفات الوراثية التى يحملها الكائن الحى. وما يقصده دارون هو أن الكائن الذى يحمل صفات قادرة على التطور والارتقاء والتكيُّف بصورة أفضل مع الظروف الطبيعية المتغيرة، هو وحده الذى يكون لديه فرصة أفضل للبقاء والاستمرار والتكاثر، ونقل صفاته الوراثية إلى أجيال تالية.

وفرتْ نظرية داروين فى الانتخاب الطبيعى عام ١٨٥٩ رؤية موحدة فى العلوم البيولوجية. وقدمتْ أسباباً موضوعية للتحولات التى تحدث فى الكائنات الحية عبر الزمن. واقترحتْ رؤية متكاملة لتعليل أصل الأنواع. ووحدتْ كل الأشكال الحية ضمن شجرة سلالة كبرى واحدة. وكشفتْ فى الوقت نفسه مكان البشر ضمن هذا المخطط الحيوى الكبير. وبينتْ أنه بجانب الانتخاب الطبيعى هناك انتخاب جنسى يتوافق مع تطور الخصائص التى تؤدى إلى النجاح فى الزواج وإنجاب الذرية. وقد صمدتْ تلك النظرية أمام التقصى العلمى لمدة قرن و نصف قرن حتى الآن رغم كل الانتقادات.

كان افتقار داروين لنظرية فاعلة فى التوريث يمثل نقطة ضعف فى نظريته، إلى أن تم الاعتراف بأعمال جريجور مندل فى الوراثة، وتوليفها مع

نظرية داروين. وبعد ذلك بدأ كونراد لورنتس أبحاثه التى أدت إلى وضع السلوك الحيوانى كله ضمن إطار تطورى. وفى النصف الثانى من القرن العشرين أعاد هاملتون صياغة نظرية الانتخاب الطبيعى من خلال نظرة جينية. ثم قدم ويلسون كتابه (البيولوجيا الإجتماعية) الذى قرّب المسافة بين الجينات الوراثية وسلوك البشر.

كان داروين هو السبب الرئيسي في انبثاق فجر جديد في علم الوراثة، حتى صار العلماء قادرين اليوم ـ نظرياً ـ على رسم الخرائط الوراثية لكافة أنواع الحياة ابتداءً بالإنسان وصولاً إلى الكائنات المجهرية. بل إن نظرية داروين قد أحدثتْ انقلاباً في العلوم الأخرى بقدر ما استثارتْ الفلاسفة ورجال الدين.

كان اكتشاف الجينات بعد داروين بعدة عقود يمثل كشف النقاب عن الآلية التى يعمل بها الانتخاب الطبيعى.

الجينات ليست خيالاً علمياً، أو آراء فلسفية أو وجهات نظر. إنها حقائق لها وجود مادى رصدَها العلماء وقاموا بدراستها واكتشاف خواصها. إنها حلقة الوصل بين العالم الفيزيائى والعالم البيولوجى.

الجينات هى عبارة عن أوامر وراثية موجزة مكتوبة بلغة خاصة على شريط طويل ملصق على جدار كل خلية من خلايا جميع الكائنات الحية يسمى (دى إن إيه). هذه الأوامر التى فك العلماء شفرتها مسئولة عن الحياة بدءاً من الكائن وحيد الخلية حتى الكائنات المعقدة التى تحتوى أجسادها على مليارات الخلايا.

الجين عبارة عن جملة صغيرة مكتوبة داخل صفحة مهملة من صفحات كتاب مغلق. ولكن هذه الجملة ما أن تصل إلى الخلية المخصصة لها حتى تتحول إلى عملاق يقود الخلية ويجعلها تنقسم وتتكاثر مليارات المرات حسب الخطة الموضوعة لها.

الجين نفسه عبارة عن أوامر أو عناوين مختصرة. ولكنه ما أن يصل إلى الخلية حتى يَكتبَ فى ذاكرتها برنامجاً كاملاً تعمل من خلاله. ورغم أن الجين هو المسئول عن انبثاق الحياة من العالم الفيزيائى، إلا أنه ليس له وجود منفصل خارج الخلية التى تعوله. وإن أول أمر يأمره الجين للخلية قبل أن يبدأ العمل هو: انسخنى. وكأن الجين يصنع الحياة، والحياة تصنع الجين.

الكائنات الحية هي بنيات تُنسَخ من نفسها عن طريق الأوامر الجينية، ثم تبدأ العمل والتفاعل

مع البيئة المحيطة. والجين بهذه الطريقة لايؤثر في الكائنات الحية فقط، ولكنه يؤثر فى المحيط الفيزيائى الموجودة فيه تلك الكائنات أيضاً.

يقول العلماء إنه أثناء نسخ الخلية للجين مليارات المرات يتصادف أن عدداً قليلاً جداً من الجينات المنسوخة تحدث به أخطاء فى النسخ، كأن يختلف حرف واحد فقط مثلاً فى الجملة الجديدة عن الجملة الموجودة فى الجين الأصلى. هذه الجينات الجديدة الشاذة تختفى فوراً لأنها تفشل فى صناعة خلايا جديدة مختلفة فى وظيفتها ولو قليلاً عن الخلايا الأصلية. فالشرط الرئيسى لنجاح الجينات هو أن يتوافق عملها مع عمل منظومة الجينات الأخرى داخل الكائن الحى. ولكن يحدث أحياناً أن واحداً من تلك الجينات القليلة جداً ينجح فى البقاء ويمارس عمله فى إنتاج خلايا تخضع لتعليمات مختلفة قليلاً عن

التعليمات الأصلية. هنا تخضع العملية كلها للانتخاب الطبيعى، أى للتجربة الواقعية. فإذا قدّم هذا الجين للكائن الحى فرصةً أفضل للبقاء والتكاثر تحول بعد عدة أجيال إلى جين رئيسى يحل محل الجين الأصلى الذى تقضى عليه الطبيعة من خلال الانتخاب الطبيعى أيضاً. بهذا يَنسخ الجين الجديد خلايا أكثر تطوراً وأكثر قدرة على التأقلُم مع الطبيعة. وإن تكرار هذه العملية ببطء شديد عدداً لا نهائياً من المرات وفى زمن مفتوح هو التفسير العلمى الوحيد المعتمَد لنشوءِ الحياة وتطورها من البساطة إلى التعقيد.

بهذا تكون الحياة كلها عبارة عن شجرة واحدة تتكون من كل تلك الاحتمالات الجينية التى نجحتْ فى التحول إلى حقيقة، وصمدتْ أمام الانتخاب الطبيعى. أى نجحتْ فى العيش والنمو والتكاثر وتوريث شفرتها إلى أجيال جديدة أكثر

تطوراً ولو بمقدار بسيط.

الواقع هو أن هذه هى أكثر نقطة تتعرض للهجوم من قبل أولائك الذين يرفضون التطور. وهم دائماً يجادلون بأنه كيف لخطأٍ فى النسخ أو صدفة أو احتمال من بين عدد لا نهائى من الاحتمالات أن يكون السبب فى كل هذا التنوع والتعقيد الموجود فى الحياة؟

والرد على ذلك يتلخص فى شقين: الأول هو أن قصة الاحتمالات المفتوحة ترسُب فعلاً أمام التقصى العلمى، لأن عدد هذه الاحتمالات كبير لدرجة غير معقولة. ولكن واقع الحال يختلف، لأننا نواجه هنا مجموعة من الاحتمالات مشروطة بالانتخاب الطبيعى، أى بالقدرة على المواجهة والصمود والبقاء والاستمرار رغم ضغوط الواقع. وهذا الشرط يقلص عدد الاحتمالات إلى القدر المعقول.

أما الشق الثانى الخاص بقصة الصدفة والخطأ فى النسخ، فإننى لم أجد له أىَّ دفاع علمى معقول. إلا إننى أعتقد أن للخلية الحية نفسها دوراً كبيراً فى ذلك. إن الخلية الحية ليست مجرد عبدٍ طائع للجينات. فهي جزء من المنظومة لا يمكن تجاهله. وهى من خلال عملها ، وفى محاولة منها لإيجاد مخرج من بؤسها وصراعها الدائم مع الطبيعة، فإنها أحيانا قليلة تتمرد وتعصى أمر النسخ الدقيق الصادر من الجينات، لعل النتيجة المجهولة تؤدى إلى وضع أفضل، وهو ما يحدث أحياناً على أرض الواقع. لا شك أن الخلية الحية لا تفكر وليس لديها وعى. ولكن ما أقصده هو أنه ما دامتْ الحياة منذ اللحظة الأولى تعانى من قسوة الطبيعة ومن خطر الموت، فإن التمرد والشوق إلى الحرية يصبحان صفتين أصيلتين فى الكائن الحى يعبر عنهما بطريقته الخاصة. وبالتالى تظهر هاتان الصفتان فى المهمة الأولى التى تُطلب من أول خلية حية، وهى مهمة

نسخ الجينات. لا للاحتمالات اللانهائية، ولا للصدفة أو الخطأ فى النسخ. إن الكائن الحى يساهم فى تحديد مصيره وصناعة مستقبله منذ كان خليةً وحيدة.

أما دخول التطور كطرف رئيسى فى الخلاف بين المتدينين المتشددين وغير المتدينين المتشددين أيضاً، فهو أمر لا مبرر له إلا الطبيعة المتعثرة لعقول الفريقين. أعتقد أنك مازال لديك فرصة كبيرة كى تفهم العملية التطورية بالغة الروعة والجمال، ثم ترى خلف كل ذلك قدرة اللّه واضحة جَليّة، أبعد ما تكون عن الفوضى والعشوائية.

للإنسان عدد من الجينات يبلغ حوالى ثلاثين ألفاً موجودة على شريط (دى إن إيه) العالق بجدار كل خلية من خلاياه التريليون. عدد الجينات فى الإنسان يعتبر أقل كثيراً من عدد الجينات

الموجودة فى كائنات أخرى كثيرة. هذه الجينات تتحكم فى الإنسان منذ بداية تكوينه فى رحم الأم حتى ميلاده ثم موته وتحلُّله وعودته إلى حضن الطبيعة. وهى تقود كل عضو من أعضاء الجسم، بدءاً من تكوين هذا العضو ونموه حتى أدائه لوظيفته وعلاقته بباقى الأعضاء والعالم الخارجى.

وقبل أن نخرج من البيولوجيا ونعود إلى علم النفس، يجب أن نتذكر أن الجينات هى التى صنعتْ الجهاز النفسى الثقافى الخارج عن سلطانها، والذى يتطور بيئياً واجتماعياً لا وراثياً أو جينياً. كما يجب ألا ننسى أن نقطة الالتقاء بين الطرفين يسميها علم النفس بالغرائز.

٤

الميمات

إذا كان للطبيعة الإنسانية أساس وراثى يسمى الجينات، ولها أيضاً امتداد ثقافى يعتمد على خبرات واقعية ناتجة عن التفاعل مع البيئة والمجتمع، فقد راق للبعض أن يُطلق اسم: الميمات (على وزن الجينات) على المبادىء الثقافية التى يتم من خلالها السيطرة على سلوك الإنسان. وبلغة علم النفس فإن الأوامر الجينية تسمى: غرائز. أما الأوامر الميمية فتسمى: قِيَماً ومبادىء وأخلاقاً ومواصفاتٍ وأحكاماً وخبراتٍ وقواعدَ ومهارات.

بذلك يكون هناك أسس مشتركة تجمع بين طريقة عمل كل من الجينات والميمات مع وجود الكثير من الفروق بينهما. أهم هذه الفروق هى أن الأوامر الجينية مطلقة لا يمكن تغييرها فى عمر الإنسان القصير، لأنها ولدت مع الإنسان وانتقلت إليه بالوراثة، وإن تغييرها يحتاج إلى زمن طويل خلال أجيال عبر الانتخاب الطبيعى على الطريقة

الداروينية. أما الميمات فهى نسبية يمكن تغييرها مهما بلغت قوتها، لأنها من صنع الإنسان نفسه. علماً بأن الإنسان يستطيع عند اللزوم اتخاذ قرارات تخالف الأوامر الجينية والميمية معاً.

يُعرَّفُ الميم بأنه معلومة تركيب معرفي قابلة للتكاثر عبر عقول بني البشر، وتؤثر على سلوكهم، بحيث تجعلهم يساعدون الميم علي الانتشار. كما يعرف الميم أيضاً بأنه أصغر وأبسط وحدة فكرية أو ثقافية تنتقل أو تُستنسخ من عقل إلى آخر، وصانعها وراعيها هو عقل الإنسان نفسه. وهناك أيضاً من عرف الميمات بأنها أفكار مستنسخة أو نظريّة أو موقف أو مهارة تنتقل ثقافياً من شخص إلى آخر. إنها أفكار معدية تتنافس في نيل حصة من عقولنا بنوع من الانتقاء الداروينى، أى الصمود والنجاح على أرض الواقع.

إن نظام الميمات كله قد خرج من نظام الجينات وتحت رعايته. وهو يقابل الوعى البشرى الذى خرج من شجرة الحياة. وقبل ذلك كان ظهور نظام الجينات نفسه يقابل العالم البيولوجى الذى خرج من العالم الفيزيائى. لذلك فإن نظام الميمات محكوم بقواعد نظام الجينات رغم أنه أرقى منه. ويترجم ذلك فى الوعى البشرى إلى إحساس بالتناقض بين العقل والجسد وبين الحرية والتبعية.

يقول الباحث دانيل دينيت: "الوعي البشري ماهو إلا مُركّب هائل من الميمات"

وُلدتْ فكرة الميم لأول مرة على يد عالم البيولوجيا التطورية (ريتشارد دوكنز) في كتابه الشهير (الجين الأنانى) عام ١٩٧٧، حيث عرف الميم كما يلى: "الميم هو نمط من المعلومات تحمله ذاكرة فرد ما قادر على التناسخ في ذاكرة فرد

آخر. ويتضمّن هذا النمط أي شيء يمكن تعلّمه أو تذكّره كالأفكار والمعرفة والعادات والمعتقدات والمهارات والصور."

ويقول ريتشارد دوكينز فى كتابه الجين الأنانى، ص٣١٢: "القانون الأساسى للحياة هو التطور نتيجة البقاء التفاضلى لكيانات مستنسخة ."

وفى ص٣١٣ يقول: "الثقافة البشرية هى نوع جديد من التطور مازال فى طفولته، يتقدم أسرع من التطور الجينى، وحدة هذا الانتقال هى التقليد أو ما نسميه "الميم."

ثم يقول: "هذه الوحدة التى نسميها الميم تنتقل من عقل إلى آخر عبر التقليد."

وفى ص٣١٤ يقول: "الجينات قبل كل شىء هى مبادىء وليست تفاصيل، والميمات أيضاً. "

ثم يقول: "يعتمد نجاح الميم فى البقاء داخل منظومة الميمات على نفس العوامل التى يقوم عليها نجاح الجين فى البقاء داخل منظومة الجينات. هذه العوامل هى العمر المديد والخصوبة والأمانة فى النقل."

وفى ص٣١٦ يقول: "عمر الميم أقصر كثيراً من عمر الجين. وأما الخصوبة أو التكاثر فتعتمد على المجهود الذى يبذل من أجل نشره. ومثال ذلك: لحن موسيقى، أو موضة نسائية، أو قانون اخلاقى."

ثم يقول: "كثيراً ما لا يتمتع الميم بالأمانة فى النقل، فيتعرض للتعديل أو الخلط أو الإضافة أو التجديد."

وفى ص٣١٨ يقول: "كثيراً ما يمتزج بالميم أفكار إضافية تعتبر تعديلاً على أفكار معدّلة من قبل، بعيدة عن الميم الأصلى، بحيث يبدوا كميم

جديد. كذلك يمكن أحياناً تقسيم الميم إلى ميمين منفصلين."

وفى كتاب آخر يؤكد أن الأخلاق لها أساس جينى سابق على الدين فيقول: "ميولنا الأخلاقية مثل ميولنا الجنسية، أصيلة بسبب ماضينا الداروينى قبل دخول الأديان على الساحة. وهذا يعنى أن أخلاقنا عالمية ليس لها حدود جغرافية أو دينية أو ثقافية."

ثم يقول: "الأخلاق في المستوى الجينى يكون فيها بعض الإيثار وبعض التبادل وبعض الخبث بجانب الأنانية الأصيلة من أجل البقاء.

فقد أثبتَ العلماء من خلال ملاحظات حقيقية وتجارب معملية، أن كثيراً من الحيوانات وليس الإنسان فقط، قد طوَّرت من خلال الانتخاب الطبيعى صفات وراثية فيها بعض الإيثار أى تفضيل مصلحة القطيع على المصلحة الفردية. وهذا يعنى

أن الحيوانات التى تحمل جين الإيثار قد أثبتت أنها تمتلك مقدرةً أكبر على البقاء والتكاثر بصورة أكبر من الحيوانات التى لا تمتلك هذا الجين. وهذا ما يؤكد فكرة الأساس البيولوجى للأخلاق.

أوجُه الشبه بين الميمات والجينات الوراثية تتلخص فى أن كل منهما يعمل من خلال مجموعات مترابطة تتعاون معاً، يمكن تسميتُها بنك الميمات، أو بنك الجينات. والميمات تُستنسخ فى العقول كما تُستنسخ الجينات فى الخلايا. والميمات تنتشر وتنتقل من عقل إلى آخر مثلما تنتشر وتنتقل الجينات من خلية إلى أخرى. والميمات تتطور كما تتطور الجينات، ولو أن تطورها أسرع كثيراً. والميمات التى ترسُب فى الاختبار الثقافى القائم على تراكم الخبرات الواعية تنقرض وتختفى، مثل الجينات التى تفشل فى الاختبار الطبيعى. فمثلما تُستنسخ وتنتشر وتتطور وتنقرض وتختفى بعض

الجينات كذلك تُستنسخ وتنتشر وتتطور وتنقرض وتختفى بعض الميمات أيضاً.

ليس للجينات معنى أو وجود إلا داخل الخلية الحية. وليس للميمات معنى أو وجود إلا داخل العقل. وتحمل الجينات عناوين مختصرة، أما باقى البرنامج المطلوب من الخلية تنفيذه فتقوم الجينات بتخزينه داخل ذاكرة الخلية. وكذلك تحمل الميمات عناوين مختصرة، أما التفاصيل فيتم تخزينها فى ذاكرة الإنسان أو داخل صفحات الكتب أو أقراص الكمبيوتر. ومثلما تتنافس وتتصارع أو تتعاون وتترابط الجينات لكى تسيطر على الكائن الحى تقوم الميمات بنفس المهمة. وكما تتوافق الجينات مع الظروف والأوضاع الخارجية، تتوافق الميمات. وكما تخضع الجينات للانتخاب الطبيعى، تخضع الميمات للانتخاب الثقافى. فلا يبقى منهما إلا ما يضمن للكائن الحى

الصمود والاستمرار والبقاء حياً لأطول وقت ممكن على أرض الواقع.

ويجب أن ننتبه إلى أن الذي يستطيع البقاء والاستمرار من الكائنات الحية أو من الأفكار أو الخبرات أو الثقافات أو العقائد ليس الأفضل، بل يبقى ويستمر من يتوافق مع الأوضاع والظروف ويمتلك خصائص وقدرات صالحة للزمن الذي ظهر فيه. فإن أساس الثقافة البشرية هي تلك الأفكار التي تُشكّل في مجموعها نتاجاً ثقافياً يتطور ويتغير ويتبدل ويتجدد مع مرور الزمن، ولديه القدرة على التناسخ والانتخاب والتنوع بطريقة تناسب الموارد البيئية المحيطة.

نلاحظ أيضاً أن الجينات قد استطاعت تطوير كائنات حية معقدة من كائنات وحيدة الخلية. كذلك تفعل الميمات، إذ تقوم بتطوير نظريات وأيدلوجيات وعقائد وثقافات كاملة من أفكار

بسيطة. ومثلما تكونت مجتمعات الكائنات الحية من عدد من الأفراد وتعددت وتنوعت هذه المجتمعات، حدث ذلك أيضاً للأفكار. فقد تكونت الثقافات الممثلة باللغة والرأي والعادة والعقيدة والزي واللحن والتاريخ والجغرافيا والمصالح نتيجة تطور الأفكار التي حملها أفراد المجتمع، عندما عاشوا وتفاعلوا مع بعضهم البعض ومع الظروف الخارجية، وصمدوا معاً أمام اختبار الواقع.

إذا نظرنا للعالم بطريقة الميمات، فسوف نجد أن الثقافات تتطور اعتماداً علي أن الثقافة هي مجموعة من الميمات ليس إلا. فثقافة أى شعب هي عبارة عن بنك الميمات الموجود في عقول أبنائه. هذه الميمات تتطاحن فيما بينها لتفرز في النهاية أي الميمات أقدر علي حفظ مصالح الشعب ككل. وهذا بدوره يُفسّر لِمَ تتابين الثقافات البشرية بتبايُن البيئات التي تعيش فيها. حيث أن التحديات

والظروف الخاصة بكل شعب تستوجب نشر ميمات معينة دون غيرها.

الميمات المارقة مثل الجينات المارقة تسمى فيروسات. وحيث أن العقول البشرية مهيأة أصلاً لأن تصيبها أية عدوى خبيثة، فإن فيروسات العقل سواء كانت عشوائية أو من تصميم البشر قد تختلط بالميمات الصالحة فتفسدها، وقد تنطلق فى مجموعات يدعم كل منها الآخر، وتستنسخ من عقل إلى آخر، وتشكل حزمة تخدع الكثيرين ممن يعتبرونها تراثاً ثقافياً عقائدياً.

القيم المطلقة كالحق والصواب والجمال والحب والنظافة والعمل والإيمان والكرامة والشرف والفضيلة لها أساس جينى. لذلك فهى سابقة على الدين والفلسفة. فالدين جيد لأنه يؤكد على تلك المبادىء وليس العكس. هذه المبادىء فى جملتها مكتوبة على الجينات، ولكن التفاصيل

متروكة ثقافياً للميمات. لهذا أنت تعرف مقدماً وجينياً أن القذارة شيءٌ سيء. وتعرف ميمياً أن يد العامل الملوثة بالطين فى الحقل شيءٌ جيّد.

الجين يؤكد لك أن المصلحة الفردية ضرورية، ويؤكد لك أيضاً أن مصلحة الجماعة لا تقل أهمية عن مصلحتك الشخصية. والميم يضع المبادىء التى تُنظّم العلاقة بينهما. فالجين أنانى لأنه يهدف إلى المحافظة على الحياة واستمرارها وتطورها مهما كان الثمن. ولكنه يعرف أيضاً بعض الإيثار. فقد أثبت الانتخاب الطبيعى خلال رحلة تطورية طويلة أن مصلحة الجماعة تصب فى مصلحة الفرد. لهذا فإن الجين يؤكد لك أن الحب والتواصل والتعاون مع الآخرين من بنى جنسك هو الحق، أما الكره والعداء والتدمير فهو الباطل. ولكن الميم هو الذى يحدد لك من هم الآخرون الذين يجب أن تحبهم؟ وهل هم أسرتك أم شركاؤك فى الجماعة أم فى الطائفة أم فى

المذهب أم فى الدين أم فى الوطن أم فى الإنسانية؟ كما أنه يحدد لك كيف تحبهم؟ وإلى أى مدى يمكن أن تضحى بمصلحتك المباشرة من أجلهم؟ ومتى يجب أن تنتبه وتأخذ منهم موقفاً مختلفاً قد يصل إلى حد العداء الصريح؟ كل ذلك يتم حسب تجارب واعية واختباراتٍ حقيقية وإشباعاتٍ وإحباطات تعرضْتَ لها وتعرض لها كل جنسك على أرض الواقع. الجين يؤكد لك أن الإيمان ضرورى للإنسان. والميم يحدد لك هل هو الإيمان العقلانى المستنير؟ أم إنه الإيمان الغبى اللامعقول؟ الجين يؤكد لك أن الدفاع عن ذاتك وعن أولادك وأملاكك فضيلة. والميم يحدد لك الفرق بين الدفاع الواعى المؤثر، وبين الدفاع الأحمق الذى يؤدى إلى ضياع الحقوق. كما أن الميم يقدم لك خيارات ثقافية أخرى لا يعرفها الجين؛ فهل تدافع باستخدام القوة أم باستخدام المنطق أم القانون أم الشرطة؟ الجين يقول أن التعلُّم فضيلة. والميم

يقول أن التعلم عن طريق الكمبيوتر أفضل من التعلُّم عن طريق المدرسة. باختصار فإن الجين أكثر قوةً وأصالة، والميم أكثر تطوراً واستنارة.

جهاز الميمات كله مسئول أمام جهاز الجينات. وهو مطالب أن يقدم إضافة فى قيادة الإنسان لم تكن الجينات تستطيع أن تقوم بها بمفردها. وهذا هو مصدر كل الأمور النفسية الخاصة بالحرية والمسئولية والحساب.

الجين يتحمل كامل المسئولية عن الحيوان. أما بالنسبة للإنسان، فإنه لم ولن يقوم بهذا العمل إلا من خلال الميمات، شئنا ذلك أم أبينا.

التاريخ شيءٌ يخص البشر فقط. وهو يتكون من مجموعة من الميمات ربما يفوق عددها عدد الجينات الثلاثين ألفاً. وعندما تنجح الثقافة فى التحوُّل إلى مبادئ ميمية محددة، فإنها لا ترقى أبداً إلى مستوى المبادىء المطلقة المثبتة جينياً، بل

إنها يجب أن تتوافق معها. لهذا فإن المبادىء الميمية قابلة للتغيير والتعديل والتطوير، وكذلك تخضع لدروب التفسير المختلفة التى تعتمد على المصالح والظروف والمكان والزمان.

٥

الجهاز النفسىّ الثقافىّ

النظام الرئيسى الذى يحكم الإنسان هو الجهاز النفسىّ الثقافىّ، وهو مصنع إنتاج الميمات. فالإنسان يشعر ويفكر ويُقَيّم الأمور، ويصل إلى نتائج ويتخذ قرارات يحولها إلى أفعال حقيقية على أرض الواقع، ثم يحوّل ذلك كله إلى خبراتٍ ومبادىء وقِيَم ومواصفات وعلوم تُسجل داخل الكتب وأجهزة الكمبيوتر، ويُسجل بعضُها داخل الذاكرة العقلية للإنسان، حسب قدرة هذه الذاكرة على الاستيعاب.

ولكن المهم هو أن عناوين هذه الأمور أو مفاتيحها تتجمع فى مكتبة الميمات داخل عقل الإنسان، تلك التى تقابل مكتبة الجينات المصاحبة للإنسان منذ لحظة ولادته مسجلةً على شريط (دى إن إيه) المعلق على جدار كل خلية من خلاياه.

مثلما كانت الجينات وراء كل شىء يخص الإنسان، فإنها كانت أيضاً وراء الجهاز النفسى

الثقافى الذى يتميز به الإنسان دون سائر المخلوقات. لقد صنعته وزودته بإمكانياتٍ هائلة ودعمته حتى لحظة معينة، ثم تركت له القيادة، لعله يصل بالإنسان إلى نتائج ما كانت الجينات نفسها تستطيع أن تصل إليها إلا عبر عملية تطورية طويلة قد تستغرق مليارات السنين.

لهذا فإن الجهاز النفسى له أساس جينى وراثى يسمى الغرائز، ولكن له أيضاً امتداد ثقافى، يعتمد على خبرات واقعية، ويتفاعل مع البيئة والمجتمع، وفى النهاية يضع ميماته، أى قِيَمه ومبادئه التى تتمتع بسلطات لا تقل عن سلطات الجينات نفسها.

إذن للإنسان طبيعةٌ إنسانية تختلط فيها الجينات بالميمات، أى جزء بيولوجى وجزء ثقافى. ويقوم بهذا الجزء الثقافى جهاز نطلق عليه فى هذه الدراسة اسم (الجهاز النفسى الثقافى).

هذا الجهاز يتكون من ثلاثة برامج تتعاون معاً وتظهر فى النهاية كوحدة واحدة وتصدر قرارات مشتركة. هذه البرامج هى برنامج الطبع الذى يدير العواطف الإنسانية، وبرنامج العقل الذى يدير الفكر الإنسانى، وبرنامج الضمير الذى يدير النتائج والأحكام. هذه البرامج وفقاً لفرويد لها جانب شعورى يمكن رصدُه، وجانب لا شعورى من الصعب رصده، ولكنه أكبر حجماً وأكثر عمقاً وأشد قوة وتأثيراً.

الجهاز النفسى الثقافى يعطى الجسد نفس الأوامر التى تعطيها الجينات. فهو يأمره أن يتحرك ويجرى ويلعب، ويعمل ويأكل ويشرب وينام ويتكاثر، ويدافع عن نفسه ويعتدى وغير ذلك. ولكن هذه الأوامر عبر الجهاز النفسى الثقافى تكون أكثر رُشداً وحكمة، بعد مرورها بمصفاةِ العواطف والأفكار والأحكام. وهذا هو الفرق بين الإنسان والحيوان.

إن قوة وعظمة الجهاز النفسى الثقافى هى نفسها التى تشكل صعوبة فى دراسته. فهو ليس برنامج ثابت لا يتغير، أو أنه يتجدد بطريقة بسيطة مثل برامج الكمبيوتر، ولكنه يتجدد ويتطور فى كل لحظة، وتأثير الزمن عليه متأصّل فى طبيعته. أى أن السلوك دالة فى الزمن بلغة الرياضيات، أو أن النمو جزء أساسى من الطبيعة الإنسانية بلغة علم النفس.

لكن الطبيعة لم تترك نمو الجهاز النفسى فى امتداده الحر الثقافى يحدث بطريقة عشوائية. وإنما استمرت فى رعايته ووضع ضوابط محددة له عن طريق الجينات. هذه الضوابط يمكن رصدها متى التفتنا إليها. فالجهاز النفسى الثقافى فى الطفولة يختلف عنه فى المراهقة، ويختلف عنه فى مرحلة النضج. إنه يتغير ويتطور باستمرار من خلال تجارب حقيقية على أرض الواقع. وهى ليست

تجارب الفرد فقط، ولكنها تجارب المجتمع بأكمله، بقدر ما يمكنها الوصول إلى الفرد والتأثير فيه. لهذا فإن طبيعة الجهاز النفسى الثقافى هى أساس فكرة الحضارة وفكرة التاريخ وفكرة الحرية. هذه الأفكار تخص البشر فقط، لأنهم وحدهم يملكون هذا الجهاز المعجزة.

إن فهم الجهاز النفسى الثقافى بهذه الطريقة يحسم ببساطة فكرة العلاقة بين المطلق والنسبى، أو العلاقة بين الحرية والقدرية. فكل ما هو مكتوب فى الجينات مطلق قدرى لا يمكن تغييره فى عمر الإنسان القصير. وكل ما هو من إنتاج الجهاز النفسى الثقافى نسبى حر قابل للتغيير.

الكائنات تطور من نفسها، والطبيعة لا تصنع لها مستقبلها، والكائن الذى عجز عن التطور اختفى من الوجود. والإنسان كائن مؤهل لكى يصنع المعجزات، ولكنه جزء من العالم

البيولوجى، الذى هو أيضاً جزء من العالم الفيزيائى. والجهاز النفسى الثقافى للإنسان هو الوسيلة الفريدة التى ابتكرتها له الطبيعة لكى يقرر مصيره ويصنع مستقبله بطريقة تختلف عن باقى الكائنات. ووجود الجهاز النفسى الثقافى للإنسان قد أضاف البعد الاجتماعى إلى العملية التطورية. وبهذا فإنه قد ضمن تراكم خبرات أجيال من البشر ووصولها بطريقة لاغريزية إلى الإنسان.

الطبيعة نفسها عبارة عن نظام خرج من الفوضى. وهو فى كل لحظة يقاوم ضغوط عودته إلى الفوضى مرةً أخرى. والحياة هى حالة خاصة جداً من النظام ابتكرتها الطبيعة. إنها عبارة عن وحدات منفصلة من كائنات تعيش فى قطيع لعمر محدود. ولكنها قبل أن تموت، تورِّث الأجيال التالية صفاتٍ جينية أكثر تطوراً. هذه الصفات هى خلاصة تجربة واقعية وتفاعل حقيقى قاوم

الفوضى بقدر ما استطاع.

الكائن الحى يلعب دوره فى دعم الطبيعة عن طريق تحويل خلاصة تجربته إلى صفات وراثية أرقى، تنتقل إلى الأجيال التالية بفعل الانتخاب الطبيعى. وهو إن لم يفعل ذلك ينقرض.

والإنسان الذى لديه أجهزة إضافية هى الطبع والعقل والضمير يلعب البعد الاجتماعى فيها دوراً كبيراً تكون غايته الكبرى هى البحث عن ذاته، التى يصنعها بنفسه من خلال تجربة حقيقية غير قابلة للتكرار. فهذا هو ما يثبت وجوده، ويجعل ذريته يبدأون من حيث انتهى، ولا يقومون بتكرار تجربة فاشلة مرة أخرى.

الإنسان يدافع عن بقائه فى كل لحظة. وكأن الهدف من حياته ببساطة هو أن يظل حياً. ولكنه أثناء الصراع يزيح الستار عن معدنه، ويضع لمساته،

ويسجل بصماته، ويرد الجميل للطبيعة التى وهبته الحياة. فأنت لن تترك نسلاً يستحق الحياة ما لم تتطور. وعندما تغادر الحياة، وتترك لورثتك خلاصة تجربتك البيولوجية والثقافية، سيكون السؤال هو: هل تركت شيئا لدعم الحياة أم تركت ورثتك غارقين فى الديون ؟

خلال التسعة أشهر التى يقضيها الجنين فى بطن الأم، يرث الإنسان خلاصة التطور الغريزى منذ بدء الخليقة حتى لحظة ولادته. ويتشابه كل البشر فى الأساس، وتحدث الاختلافات فى الفروع لتميز شخصاً عن آخر. وبعد الولادة يبدأ فوراً التوريث الاجتماعى. حيث يتم بالتدريج تشكُّل الطبع، ثم العقل، ثم الضمير. ومع الزمن يقل بالتدريج تأثير العوامل البيولوجية، ويزداد تأثير العوامل البيئية الاجتماعية.

في خلال السنوات الخمس الأولى من عمر الطفل يتشكل لديه برنامج الطبع، وهو النظام الذى يتحكم فى العواطف البشرية. هنا يرث الطفل من المجتمع المحيط به خلاصة مراحل التطور المختلفة التى عاشتها العواطف البشرية منذ بدأ الخلق وحتى ولادته. إنه يرث خلاصة حالات الحب والكراهية والنجاح والفشل والكفاح والمعاناة التى مر بها أجداده. ويتفق البشر جميعاً أيضاً فى الأساس ويختلفون فى الفروع. وبعد ذلك ينضج برنامج العقل الذى يكون تأثير المجتمع عليه أعلى من تأثيره على برنامج الطبع. ثم يتشكل برنامج الضمير، ويرث الإنسان مجموعة القيم والمعتقدات والأخلاق التى يؤمن بها قومه. وهنا يكون تأثير المجتمع على الفرد قد وصل إلى ذروته.

ويتزامن هذا التوريث بالتدريج مع ازدياد مساحة الحرية. فمن لا حرية على الإطلاق فى بطن الأم،

إلى حريةٍ تزداد تدريجياً مع الولادة والنمو وزيادة الإمكانيات الجسدية وتفتُّح القدرات العقلية. وعندما تصل عملية التوريث الاجتماعى إلى درجة عالية فى فترة الشباب، تكون القدرات الجسدية والعقلية قد ارتقت أيضاً إلى نفس المستوى، وتكون مساحة الحرية قد زادت هى الأخرى.

هنا يتوجب على الإنسان أن يستعمل حريته، ويتفاعل بإيجابية مع المجتمع، وينتقل من كرسى المتلقى السلبى الذى يأخذ أكثر مما يعطى، إلى دور الفاعل الإيجابى الذى يؤثر فى الآخرين، فيعطى أكثر مما يأخذ، ويضع لمساته لإحداث تغيير حقيقى فى عالمه. إن أفعاله الآن هى التى تحدد مستقبله رغم كل ذلك الميراث الجينى والاجتماعى الثقيل. ومع أنه يتفاعل مع بيئة خارجية لم يخترها، ومع أفراد آخرين يتعاونون معه فى لعب نفس الدور، أو يصطدمون به ويعوقون

طريقه، فإن كل فعل يقوم به يصبح حقيقة خرجتْ من بين عددٍ كبير من الاحتمالات المختلفة. هذا الفعل يُحدث تغييراً طفيفاً فى العالم وفى الآخرين وفى عالمه الداخلى. وما أن ينتهى هذا الفعل حتى يتحول إلى ماضٍ أو تاريخ، يُضاف إلى الميراث الضخم الذى ورثه فى السنوات السابقة حينما كانت حريته وقدرته على التأثير فى العالم أقل. فالإنسان الحقيقى خُلِق لكى يكون إنساناً، وهو قادر على الحب والإنتاج والتفكير العاقل الموضوعى، واستخلاص العبر والدروس، ووضع المعايير، ولديه من الأدوات ما يُمَكِّنُه من ذلك.

لهذا فإن عجز الإنسان عن إثبات ذاتِه واستخدام إمكاناته هى جريمة استنفرتْ الفكر العلمى والفلسفى على مر العصور، وهى السبب فى كل السلوك اللامعقول الذى ينتشر من حولنا. وإن

إحدى الخطوات المهمة فى سبيل رصد تلك المشكلة هى فهم الآليات التى يعمل بها الجهاز النفسى الثقافى، وهو الأمر الذى شكَّلَ صعوبة بالغة حتى الآن.

إن النقطة الجوهرية التى ينبغى التركيز عليها هى أن الجهاز النفسى الثقافى المتحرر من تأثير الجينات، ما زال لديه أمر جينى قاطع لا يمكن الخروج عنه، ويمكن تصوره كالآتى: "عندما تصطدم حريتك بحريات الآخرين، فإنه يتوجب عليك البحث عن الحق والصواب والفضيلة والحب والمعرفة والعدل والرحمة والتسامح وغيرها. أما تفاصيل هذه المبادىء فيمكنك أن تصل إليها بنفسك من خلال تجارب حقيقية على أرض الواقع، أى من خلال الانتخاب الثقافى."

فجين الأنانية الذى يهدف إلى المحافظة على الحياة واستمرارها وتطورها، يتعاون مع جين الإيثار،

بعد أن أثبت الانتخاب الطبيعى خلال رحلة تطورية طويلة أن مصلحة الجماعة تصب فى مصلحة الفرد.

هذا الأمر الجينى يمكن أن نعتبره بلغة الفلسفة، الأساس الجينى للطبيعة الإنسانية. وإن نجاح الإنسان فى تحقيق هذا الأمر على أرض الواقع يجعل الأمور سهلة و منطقية و قابلة للفهم. وهذا يعنى أن الانتخاب الثقافى ينجح حينما يتوافق مع الانتخاب الطبيعى.

ولكن أول ما يقوم به الإنسان عند استخدام جهازه النفسى الثقافى هو إعاقة إنسان آخر عن أداء نفس المهمة. وهذا هو ما نسميه علاقة القهر، أو كسر الإرادة. إن القوة التى فشلت فى الانتخاب الثقافى تتحول إلى قوة قهر عندما تستطيع أن تحتكر لنفسها امتياز تفسير معانى الحق والفضيلة، وتحيط هذا الاحتكار بسياج من الحماية المقدسة، وتنجح فى فرض كل ذلك على

الآخرين. وبذلك فإنه بدلاً من قيام شبكة من العلاقات بين البشر الأحرار تعتمد على التوافق مع الطبيعة الإنسانية، تقوم فى الواقع شبكة من العلاقات تعوق ذلك؛ فيتم تقسيم البشر إلى أسياد وعبيد. فالأسياد فقط من لهم حق الاقتراب من شجرة المعرفة. أما العبيد فإن ذلك محرم عليهم. بهذا يمكننا تعريف علاقة القهر بأنها "العلاقة التى تنتج من احتكار جهة ما لامتياز معرفة الخير والشر بغض النظر عن نجاحها فى الانتخاب الثقافى من عدمه. إنها العلاقة التي تُقسِّم البشر إلى أسياد وعبيد."

إن الحيوان يعيش فى قطيع. والجينات تتولى تماماً مهمة توجيه القطيع. أما قطيع البشر فهو قطيع فريد من نوعه. إنه القطيع الوحيد الذى يتمتع كل فرد فيه بإرادة حرة مستقلة. وعندما تصطدم الإرادات يصبح توجيه القطيع مشكلة

خاصة بالبشر لم تواجهها الطبيعة من قبل. والطبيعة تركتْ للبشر حل تلك المشكلة ثقافياً ولم تزودهم إلا بالأمر الجينى: **"عليكم البحث عن الحق والصواب والفضيلة."** والبشر فى هذه الحالة قد يتعاونون وقد يتقاتلون لأن كل منهم يرى الحق والصواب والفضيلة بطريقته، وفى ضوء مصالحه وظروفه وخبراته الخاصة. هذه إذن نتيجة منطقية لطبيعة الإنسان الخاصة وظروف وجوده فى الكون. ولكن كل هذه الاعتبارات تؤدى فى النهاية إلى أن إرادة فرد واحد أو جماعة واحدة تتفوق على إرادة الآخرين بدافع حمايتهم، وتفرض رؤيتها الخاصة لمعانى الحق والصواب والفضيلة. هذه الرؤية هى التى تصمد أمام الانتخاب الثقافى، أى التجربة الحقيقية على أرض الواقع. ولكن الواقع يتغير والنجاح النسبى فى حماية القطيع يبدأ فى الاهتزاز. هنا تحتاج هذه الحماية نفسها إلى حماية،

وهو ما نسميه: القهر.

وبدلاً من أن تتبع القائد، وتستمتع بحمايته، وتتوافق إرادتك مع إرادته. صار عليك أن تتحدى طبيعتك الإنسانية وتقهرها لكى تتوافق مع إرادة القائد وإلا فقدت حمايته وعرضت نفسك لأخطار بالغة. ولكن طبيعتك البشرية ليست مؤهلة لكى تقبل هذا القهر ببساطة، مما يجعلها تنقسم ما بين قوة شعورية تتعاون مع القهر الخارجى، وقوة لا شعورية ترفضه. وهذا يؤدى فى النهاية إلى ظهور علاقتين تميزان تاريخ البشر: الأولى: علاقة سيد وعبد بين القهر الخارجى والفرد. والثانية: علاقة عبد ومتمرد بين الفرد ونفسه، بعد أن انقسمتْ إرادته ـ نتيجة لذلك ـ ما بين قوة تطيع القهر الخارجى، وقوة ترفضه.

القهر إذن عبارة عن ميم ثقافى تحول إلى فيروس ينتشر بصورة وبائية. إنه يقوم بذلك بحجة

حمايتك من قهر آخر. ولهذا فإنه بهذه الحجة يتحول إلى قهر مقدس. ولكن القهر الآخر تحول أيضاً إلى قهر مقدس، مما يزيد الأمر المعقد تعقيداً.

ولا ينطبق على تعريفنا للقهر حالات قسوة الطبيعة، أو الهزائم والإحباطات الواضحة المفهومة، أو القوانين والضوابط التى يحق للإنسان الاحتجاج عليها والعمل على تغييرها. فالإنسان يستطيع التكيُّف بطريقة طبيعية مع تلك الأمور مهما بلغتْ شدتها، مادام هناك أمل فى الوصول إلى واقع أفضل. ولكن فى حالات القهر، لا تكتفى القوة الخارجية بفرض سيطرتها على الإنسان، بل تمتدُ يدها لتعبث بجهازه النفسى الثقافى، بهدف إحداث تغيير ما يعطى شرعية لاستبدادها.

إن منع الطبيعة الإنسانية من أداء عملها نتيجة تعرضها لقهر خارجي يعصف بالتوازن النفسى للإنسان. مما يجعله فى النهاية يتوقف عند حل

وسط تظهر ملامحه فى كل ذلك السلوك الشاذ اللاعقلانى الذى نراه من حولنا، والذى يحوّل حياة الإنسان إلى لغز كبير غير قابل للفهم. هذا الحل الوسط هو نصف الجنون الذى يتشبث به الإنسان لكى يحميه من الجنون الكامل. إن الجهاز النفسى الثقافى يجب أن يحقق للإنسان نوعاً من التوازن النسبى مع نفسه ومع الطبيعة ومع الآخرين. وهو ما دام لم ينجح فى تحقيق ذلك، فإنه يلجأ إلى توازن زائف يحل محل التوازن الحقيقى.

سيجموند فرويد رصد هذه الظاهرة بوضوح فى الحالات المرضية التى وصلتْ فيها الأعراض إلى مستوى مؤلم يحتاج إلى مساعدة عاجلة، وأطلق عليها إسم (التثبيت الطفولى). وسواء كان الأمرُ تثبيتاً طفولياً أو توازناً زائفاً أو نصف جنون، فإننى أحاول هنا رصد حالة أعم وأشمل، يشترك فيها الجميع، وتصلح لتفسير كل سلوك البشر أفراداً

ومجتمعات. وسوف أطلق على هذه الحالة إسم (التعثر)، وأعرّفها كمايلى: **"التعثر هو الصراع الداخلى بين الفرد ونفسه، كبديل عن الصراع الخارجى بين الفرد وقوى التسلط."**

نلاحظ أن الجهاز النفسى الثقافى فى مرحلة النمو يكون مشغولاً بترويض ذاتِه. فبرنامج الطبع وهو النظام الذى يتحكم فى العواطف يكون فوضوياً فى حاجة إلى إعادة ترتيب، يختلط فيه الحب بالعدوانية، والطمأنينة بالخوف، والفردية بالإرتباط، والحرية بالتبعية، والأنانية بالإيثار.

أما برنامج العقل وهو النظام الذى يتحكم فى الأفكار فإنه فى مرحلة النمو يكون تبريرياً، أى يكون مشغولاً باستقبال وتبرير كل الأفكار التى تأتيه من الخارج عن طريق الحواس. ليست لديه الخبرة الكافية، ولم يتعلم بعد كيفية استعمال إمكاناته الهائلة، من قدرة على الفحص والترتيب

والدراسة والتحليل، والتعلُّم والفهم والتبويب والملاحظة والمعالجة، والاستدلال والاستنتاج والمقارنة، و التشاور مع الاجهزة الاخرى، واتخاذ القرارات. لهذا فإنه يكون من السهل عليه الوقوع فى فخ التفكير السحرى غير الموضوعى وغير المنطقى.

أما برنامج الضمير وهو النظام الذى يتحكم فى الأحكام والنتائج والمراجعات، فإنه فى مرحلة النمو يكون مشغولاً باستقبال الميمات، أى القيم والمبادىء والمواصفات، والخبرات والدروس والعبر التى تأتى إليه من الخارج عن طريق الوالدين والمجتمع، ولم يمتلك بعد خبرة فرز الخبيث من الطيب. إن المرجع الوحيد لديه هو قوة مصدر المعلومات. لهذا فإنه بمقدار ما يكون الخارج متسلطاً عليه، يتعلم هو كيف يكون متسلطاً على نفسه. فالأمور تبدأ بالتسيُّب وتنتهى بالتسلط، دون

أن تتوقف فى منتصف الطريق عند محطة التسامح والرحمة.

إذن فالطبع الفوضوى والعقل التبريرى والضمير التسلطى تُعدُّ أموراً عادية بالنسبة لفردٍ فى مرحلة النمو. والمجتمع يستخدم معه اللين أحياناً والحزم أحياناً أخرى. وعادةً يُفضّل المجتمع الأفراد الأكثر ميلاً للطاعة والأقل مشاكسة. وعموماً يكون الفرد هنا مهيَّئاً لتلقى المكافأة أو العقاب حسب ما تراه سلطة المجتمع، سواء عن طريق الأبوين أو المعلمين أو الكهنة أو الحكام أو غيرهم، وذلك بشرط ألا تكون المكافأة مبالغاً فيها وتؤدى إلى التدليل، ولا يكون العقاب شديداً ويؤدى إلى القهر.

والجهاز النفسى يقوم ذاتياً بترويض هذه البرامج حتى تصل إلى درجة من النضج يتشكل فيها طبع إنتاجى يفضل الحب والتواصل على الكره والعدوانية. كما يتم ترويض العدوانية لتتحول إلى

عدوانية رشيدة مهذبة، تهدف إلى الدفاع والحماية والأمان لا إلى الانتقام والتدمير. كما يتم تشكيل عقل موضوعى يفضل الواقع على الخيال، والحقيقة على الوهم. ثم يتشكل ضمير إنسانى يمتلك المرونة الكافية، ويفضل الرعاية والتشجيع والاحترام والإرادة والتصميم والرحمة والتسامح على التسلط والقهر. ضمير ينتج القيم والمبادىء والأخلاق ولا يكتفى باستقبالها. هنا تنتهى مرحلة الترويض لتبدأ مرحلة التطوير والإبداع. والجهاز النفسى الناضج يكون مشغولاً بإعادة بناء ذاته وتطويرها باستخدام الإمكانات الهائلة التى بين يديه. عندئذٍ ينتهى دور التابع المتلقى ليبدأ دور الحر المنتج.

ولكن للأسف تبدأ المشاكل عندما يتعرض الإنسان لقهر خارجى يعوق الطبيعة الإنسانية، ويمنع هذا المسلسل من الاستمرار، ويجعل الإنسان

يعود لاستعمال شخصيته النامية في غير توقيتها. فالطبيعة الإنسانية الآن ترفض هذا الوضع، وسوف تظل ترفضه بشدة مهما طال الوقت ومهما كانت التكاليف. وبالتالى نصل مرة أخرى إلى الوضع الذى أطلقنا عليه اسم (التعثر).

الإنسان فى تواصله مع المجتمع والبيئة لديه أجهزة استقبال هى الحواس: السمع والبصر واللمس والشم والذوق، وأجهزة إرسال هى الجهاز العضلى: الأيدى والأرجل واللسان وغيرها. هذه الإشارات المرسلة والمستقبلة هى أفعال حقيقية تُعدّل الواقع، وتؤثر فى البيئة، وتعود لكى تؤثر فى الجهاز النفسى الثقافى.

هناك إذن طاقة بيولوجية حقيقية تنتقل على المستوى الداخلى بين أجزاء الجهاز النفسى المختلفة، وتعبر عن نفسها باللغة التى يفهمها كل جزء من أجزاء هذا الجهاز. فهى أحياناً مثيرات

لاحتياجات الجسد ، وأحياناً عواطف، وأحياناً أفكار، وأحياناً أخلاق. ونفس هذه الطاقة تنتقل على المستوى الخارجي من فرد إلى آخر عن طريق أفعال حقيقية تخرج من الطرف المُصدّر عن طريق الجهاز العضلى، وترصدها أجهزة الحواس عند الطرف المستقبل. وتختلف شدة الطاقة من حالةٍ إلى أخرى. وفى كل الأحوال يكون هناك تبادل مستمر للطاقة مهما اختلفت شدته.

الأمر ليس سحراً أو علماً غير معروف. فالطاقة تنتقل عن طريق أفعال حقيقية. إن حركات الجهاز العضلى أو الصوت أو نظرة العين أو التلامس أو حتى السكون يتم رصدها بواسطة وسائل الإدراك الحسى عند الطرف الآخر. ويتم ترجمة ذلك إلى طاقة داخلية تتناسب مع الطاقة التى صدَّرَها الطرف الخارجى، وتذهب إلى المكان الملائم فى الجهاز النفسى الثقافى، وتندمج مع عملياته

الداخلية. فالحب والعدوانية والأفكار المعقولة واللامعقولة والمثيرات والأخلاق ينتقل كل منها إلى المكان المعد سلفاً لاستقباله. إنه انتقال للطاقة لا يتناقض مع النظريات العلمية.

وفى حالة التعثر يحدث خللٌ فى توزيع الطاقة داخل الجهاز النفسى، مما يؤدى إلى تعطيلها وتثبيتها وركودها وتعفنها فى مكان معين. بمعنى أنه قد أصبح هناك خلل فى الساعة الداخلية التى ينضبط عليها الجهاز النفسى. وهذا هو أول ثمار تحدى الطبيعة الإنسانية. فتجد أمامك إنساناً خائفاً، مرتعشاً، سهل الانفعال، ضعيفاً أمام شهواته، أفعاله حمقاء، وعقله غير منطقى، مشغولاً دائماً بتبرير عجزه واتكاله على الخارج، بدلاً من المشاركة فى خلق عالمه وصناعة مستقبله. فى هذه الحالة سوف يكون شغله الشاغل وسقف طموحه هو التعلق بنظام تسلطى صارم مقدس

يحمل قِيَماً ومبادئ تهذب من هذا الوضع وتضمن له النجاة. إن القهر الخارجى يؤدى إلى التعثر الذى يبحث عن المزيد من القهر.

ولكن الإنسان دائماً ما يجد طريقة لمخالفة التعليمات. وسوف يتفق الجميع فى الأسس ويختلفون فى التفاصيل. وسوف يكون بينهم المؤمنون، وبينهم الكفار، وبينهم المنافقون، وبينهم الكهنة، ولكن لن يظهر بينهم أبداً علماء أو فلاسفة أو مبدعون. فهؤلاء يرون داخل الإنسان إمكانات أخرى غير مستغلة. إنهم يرون إنساناً يحمل قيماً إنسانية وعقلاً منطقياً موضوعياً ومشاعرَ مهذبةً وضميراً رحيماً. إن الغالبية العظمى من البشر يدينون ببقائهم على قيد الحياة للقلة التى تطورت وحققتْ ذواتها وقدمتْ إبداعات نقلت الحضارة من العيش فى كهوف إلى مانحن عليه الآن، رغم كل ما فيه من قصور.

وكأننا أمام نوعين من المخلوقات: الإنسان البدائى المتعثر العاجز عن ترويض ذاته، والإنسان الناضج المتطور المشغول ببناء ذاته. وكما فى برامج الكمبيوتر، فإن النسخة المطورة من البرنامج تقرأ إنتاج النسخة البدائية، بينما النسخة البدائية من البرنامج لا تقرأ إنتاج النسخة المطورة. فهى بالنسبة لها ببساطة لا وجود لها.

إن ضغوط قوى القهر المؤثرة فى حياتنا تؤدى إلى كبت النسخة القابلة للتطور من الجهاز النفسى، لكى تستمر النسخة الطفلية غير الناضجة فى قيادة الأمور. ويكون مطلوباً منها فى هذه الحالة أن تعالج أموراً هى غير مستعدةٍ لها أصلاً. لهذا فإنها ترجع إلى قوى القهر وتطلب منها الهداية والإرشاد، تماماً مثل الطفل الذى يتشبث بجلباب والده خائفاً من عبور الطريق. لهذا فإن تعثرنا يرتبط بالضرورة بطرفٍ آخر موجود فعلاً بالخارج، أو

موجود فقط فى خيالنا. هذا الطرف يلعب معنا لعبة أسياد وعبيد، لأنه يفرض علينا شرطاً مسبقاً لا عقلانياً يتناقض مع طبيعتنا الإنسانية. هذا الشرط يتلخص فى أن كل الأوامر والتوجيهات والمبادىء التى يقدمها لنا هى صواب مقدماً، وأنه ليس علينا واجب الطاعة فحسب، ولكن علينا أيضاً أن نجد التبريرات المناسبة لذلك. وحيث أننا لا نصمد طويلاً أمام هذا الاختبار ، فالنتيجة هى أننا دائماً مذنبون.

ولكن الحقيقة هى أننا فعلاً مذنبون، ولكن بطريقة أخرى. فنحن نتعلم قواعد اللعبة من أسيادنا، ثم نطبقها على آخرين ضعفاء نستعبدهم بنفس الطريقة. فالإنسان فى معاناته من تلك الحالة التى يلعب فيها دور العبد أمام سلطة غاشمة، يعوض ذلك فيما بعد عندما يلعب هو نفسه دور السلطة أمام ضحية جديدة. بهذا نكون جميعاً

أسياداً وعبيداً، ضحايا ومذنبين فى نفس الوقت. إن ميم التعثر هو فيروس معدى بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. بل إنه منظومة كاملة من الفيروسات.

إن الإنسان المتعثر مرهق تماماً ومستنزَف. فقد اجتاز الكثيرَ من المحن، وجاهد الكثير من الشهوات، وتحمل الكثير من الانفعالات، وأرهق عقله فى تبرير الكثير من السلوك، وتبنى الكثير من الأفكار السحرية، ومَنْطَقَ الكثير من الأمور غير المنطقية، وتحمل الكثير من ضغوط السلطة ونصائح الكهنة، حتى استقر فى قلبه بعض الهدوء. وهو بعد كل هذا غير مستعد لأن يستمع إلى من يدعوه إلى استعمال قدراته المنسية وإمكاناته المهملة. فهو لا يمكن أن يصدق أنه لكى يجد نفسه ويحقق ذاته، يجب أن يؤمن أولاً بهذه الذات، وبمقدرتها على تحديد مصيرها، وبناء

مستقبلها، وخلق معاييرها بنفسها. وأن ما كان يبحث عنه طوال الوقت موجود بداخله. لهذا فإنه يقف مكانه لا يتزحزح، ينتظر فى لهفة من يقدم له صنماً جديداً لكى يعبده بدلاً من الصنم القديم المستبد، لعل الصنم الجديد يكون أقل استبداداً. وكأن القضية هى فقط مجرد استبدال صنم بآخر.

لهذا فإن قضية العبودية هى الشغل الشاغل للإنسان المتعثر، بالإضافة إلى ما يتبع ذلك من قضايا فرعية، كالتملك والسيطرة، والاستقامة والانحراف، والطاعة والمعصية، والتمرد والعقاب، والخوف والندم، ثم الهداية والخضوع والاستسلام والتكيُّف. بعكس الإنسان الناضج الحر، الذى لا تشغله إلا قضايا الإنتاجية وما يرتبط بها من مفردات لغوية مثل: العمل - العزيمة – الإرادة - التصميم - النجاح – الإبداع - التقدم.

فالإنسان الحر الناضج المتطور يدرك أن إيماننا بأنفسنا وقناعتنا بهوّيتنا ضروري لوجودنا. ولكن أساس الإيمان العقلى هو الإنتاجية، بمعنى أن يكون لدينا اليقين الذى ينمو مع العمل والإنتاج. ولا يوجد إيمان عقلى بالسلطة، بل يوجد خضوع لها.

كما أن الإنسان الحر فى حاجة إلى التواصل والانتماء. فالإحساس بالهوّية شديد الأهمية والضرورة، ولكن هذا الإحساس يجب أن يكون قائماً على خبرة المرء بنفسه، بوصفه فاعل قدراته وعاملها. والإنسان الحر يستطيع أن يكون فعّالاً فى تحديد مصيره، ويقوم بتغيير القوى الداخلية والخارجية التى تتحكم فيه. كما أنه يستطيع أن يكون حراً، وفى نفس الوقت متحداً مع العالم ومع الآخرين ومع الطبيعة فى آن واحد. إنه يستطيع أن يحكم نفسه، وأن يتخذ القرارات لنفسه، وأن

يفكر ويشعر بمقدار ما يرى ذلك ملائماً. إن تحقيق الإنسان لذاته يعتمد على الاستقلال مع التواصل والقدرة على الحب.

والحب هو اتحادُ المرء مع شخص أو شيء خارج ذاته، بشرط أن يحافظ على انفصال هذه الذات وسلامتها. إنه تجربة المشاركة دونَ أوهامٍ أو خضوعٍ أو سيطرةٍ أو تملُّك. فالمحب الحقيقي يحترمُ المحبوب ويعمل على إسعاده. إن الثقة في الطرف الآخر والاهتمام والمسئولية والاحترام والمعرفة هي أشياء ضرورية لأية صداقة أو حب.

وتفكير الإنسان الناضج يتجه نحو الإنتاج، ويعتمد على الفهم والاستيعاب، ولا ينفصل عن الأهداف. إنه يرى الظاهرة الكلية ويتفهّم علاقتها بالأجزاء المختلفة. الإنسان الناضج يتقدم إلى الأمام بإرادته الحرة دون الحاجة إلى تسلط أو تخويف أو إجبار أو ثواب أو عقاب. إنه يستطيع أن

يفكر بموضوعية دون شروط مسبقة. ويدرك أن العقل يستطيع أن ينطلق إلى أبعد الحدود سواء في الواقع أو الخيال، ولكن داخل هذا العالم، دون أوهام أو غيبيات. إن كل ما يحدث بين الميلاد والموت يعنينا، ويخضع لقوانين عالمنا، ونملك الوسائل الكافية لاستيعابه.

والضمير الناضج يحمل قدراً هائلاً من التسامح والرحمة والمرونة والاعتدال. إنه يرعى صاحبه ويحميه ويمنحه القوة والإرادة والتشجيع. أما الضمير المتسلط فإنه مثل الضمير المتسيب، كلاهما متعثر.

لو كانت طبيعة الإنسان تنتهي دائماً بالتعثر لاستمر اللامعقول معقولاً. لكن الطبيعة وهبتْ الإنسان قوة جبارة معظمها لم يستغل بعد. فالإنسان يستطيع أن يكون فاعلاً وليس مفعولاً به. إنه يستطيع أن يغير من نفسه ومن الآخرين ومن

الطبيعة ذاتها.

والإنسان الحر المتطور الذى اجتاز عقبة التعثر يختار ميماته (قِيَمه ومبادئه وأخلاقه ومعتقداته) بنفسه. يحترمها لكن لا يقدسها. يُعدّل فيها ويطورها عند اللزوم. وقد يُلغى بعضها ويضيف بدائل جديدة إذا وجد أنها لا تناسب الظروف الخارجية والزمان والمكان. المهم هو أن هذه الميمات تتوافق مع القيم المطلقة المسجلة داخل جيناته، وهى الحق والصواب والفضيلة والجمال والحب والاحترام والمعرفة والعدل والرحمة والتسامح والعزم والإرادة والحرية والاستقلالية والارتباط والتعاون والعمل والشجاعة والاجتهاد والصبر والأمل والكرامة والشرف ... إلخ.

٦

القهر الخارجى

والتعثر الداخلى

والآن نعيد ترتيب الحقائق التى توصلنا إليها:

- **للإنسان طبيعة خاصة ذات بُعدٍ جينى وراثى ثابت، وبُعدٍ آخر بيئىّ ثقافىّ متغير ينمو ويتطور من خلال تفاعل حقيقى مع البيئة والمجتمع.**
- **الانتخاب الثقافى يشبه الانتخاب الطبيعى ولكنه أسرع كثيراً.**
- **الجهاز النفسى الثقافى يتكون من جهاز الطبع الذى يتحكم فى العواطف، وجهاز العقل الذى يتحكم فى الأفكار، وجهاز الضمير الذى يتحكم فى القيم.**
- **الجهاز النفسى الثقافى له جانب شعورى يمكن رصده، وجانب لا شعورى من الصعب رصده، ولكنه أكبر حجماً وأكثر قوةً وتأثيراً.**

- يفترض فى الجهاز النفسى الثقافى أن ينمو من الحالة الطفلية الفوضاوية إلى الحالة الناضجة المتطورة، التى تحوله من التلقى إلى الإنتاج، ومن الأخذ إلى العطاء.
- القهر الخارجى هو فيروس ثقافى يقوم فيه إنسان بكسر إرادة إنسان آخر بحجة حمايته. فى هذه الحالة يتم استبدال الأمر الجينى المسجل فى الطبيعة الإنسانية: "إستخدم حريتك وإذا تعارضت مع حريات الآخرين عليك بالبحث عن الحق والعدل والصواب والفضيلة." بالأمر الميمى: "عليك الالتزام بأوامر القهر الخارجى، فإنها ذاتها هى الحق والعدل والصواب والفضيلة."
- ضغوط القهر الخارجى تتعارض مع الطبيعة الإنسانية وتؤدى إلى انقسام فى الشخصية بين جزءٍ واعٍ مطيع وجزءٍ غير واعٍ متمرد. وهذا هو المقصود بمصطلح (التعثر).

إذن فإنه عندما يتعرض الإنسان لقهر خارجى يعوق الطبيعة الإنسانية عن أداء عملها، تستمر بقايا شخصيته الطفلية غير الناضجة فى مركز القيادة، فى زمن تجاوز قدرات هذه الشخصية، بينما تكون شخصيته الناضجة قد بدأت فى التشكل، دون أن تتاح لها فرصة حقيقية للاختبار على أرض الواقع.

فالجهاز النفسى الضعيف الذى يتولى القيادة يواجه خطر الموت إذا حاول الاستغناء عن القهر الخارجى الذى يلبس ثوب السيد الراعى الحامى الذى يملك مفاتيح الحياة. كما أنه يواجه خطر الجنون إذا تعرض التوازن القائم للانهيار. لذلك فإنه يتوقف عند حل وسط هو عبارة عن توازن زائف بديل عن التوازن الحقيقى الذى لم يتشكل بعد. إنه نصف الجنون الذى يتشبث به الإنسان لكى يحميه من الجنون الكامل مادام لا يستطيع أن يغيّر من طبيعته.

لكن الطبيعة الإنسانية ترفض هذا الوضع، مما يجعل الإنسان أثناء محاولة تكيُّفه مع هذه الشروط غير المُرْضية، يُظهر ردود أفعال عقلية وانفعالية محددة تنبع من الخواص النوعية فى طبيعته، تجبره فى آخر الأمر على محاولة تغيير هذه الأوضاع. ومنبع هذا الرفض هو الشخصية الحرة القابلة للتطور، التى وُلدتْ مُشوّهة، وكبتتْ فى اللاشعور، ولم تنجح أبداً فى التحوّل إلى حقيقة. وبالتالى ينشأ هذا الوضع غير العقلانى الذى حيّر الثقافة البشرية على مدار التاريخ، والذى ما كان لينشأ أصلاً، لو لم يتم إعاقة الشخصية عن تحقيق النضج الكامل.

كان من المفترض أن تنسحب الشخصية الطفلية تماماً لكى تحل محلها الشخصية الناضجة. ولكن تواجد الاثنين معاً، وكلاهما ضعيف مشوه، يؤدى إلى هذا الانقسام العجيب.

لقد حدثتْ الفتنة، وقُسمتْ قوة القهر الخارجى الشخصية إلى شخصيتين: واحدة ضعيفة كسولة خائفة تؤيد قوة القهر الخارجى، والأخرى ضعيفة أيضاً لكنها جريئة ترفض القهر الخارجى وتناصبه العداء من وراء ستار. الأولى تلعب فى غير ملعبها، والثانية لم تتح لها فرصة اللعب على الإطلاق. الأمر يشبه تماماً الفتنة التى تحدث داخل جماعة بشرية متجانسة عندما يتسلل غريب قوى داخلها.

إننا أمام بقايا شخصية طفلية غير ناضجة تتعاون مع قهر خارجى. وبذرة شخصية ناضجة رافضة لهذا التعاون، تم كبتها فى اللاشعور، وتحولتْ إلى شبح متمرد. ومن الآن فصاعداً تصبح العلاقة بين الشخصيتين هى اللغز الأساسى الذى يُحرك كل سلوك البشر.

والواقع أن السيد يبدأ فى قهر شخصية الفرد فى مرحلة مبكرة جداً ومنذ الطفولة. ولذلك فإن

تلك الشخصية تولد أصلاً مشوهة. وهذا ما جعل فرويد يُركّز على مرحلة الطفولة المبكرة فى كل أبحاثه الخاصة بالأمراض العصابية. ولكن قليل من التدقيق يؤكد أن القهر الخارجى المبكر للشخصية هو المحرك الرئيسى للأحداث. فالقهر المبكر الذى يمارسه الوالدين على الأبناء بحجة التربية الصالحة هو الوجه الآخر للقهر الذى يتعرض له الكبار من قبل قوى المجتمع بحجة الفضيلة والصلاح والانضباط. إن القهر يولد قهراً، ويؤدى إلى حالة التعثر التى تتحول بدورها إلى فيروس معدى ينتشر فى المجتمع.

ولقد قلنا من قبل إن الطفل معدٌّ بطبعه لتقبُّل حالات اللين أو الحزم من الكبار، وذلك إلى الحد الذى لا يؤدى فيه اللين إلى التسيب، ولا يؤدى فيه الحزم إلى القهر والمذلة وسحق الشخصية والانكسار. وقد تصل عدوى القهر إلى الطفل من

مجرد تواجده داخل علاقة قهر بين الأب والأم، وهى جزء من ثقافة القهر العامة التى تنتشر بين الرجل والمرأة فى المجتمع. فى هذه الحالة سوف تدور فى رأس الطفل الكثير من علامات الاستفهام التى لا تحمل إجابة واضحة بالنسبة له فى هذه السن المبكرة. وقد يؤدى ذلك إلى دخوله كطرف فى هذه العلاقة دون أن يدرى، مما يعوق شخصيته عن التفتح والنضج عندما يحين الوقت الملائم، فيجد نفسه يسعى إلى الدخول فى علاقات من نفس النوع، لعله على أرض الواقع يستطيع أن يحل اللغز المعلق الذى لم يستطيع أبواه حله. ويساعد على ذلك ميمات القهر الدينىّ والسياسىّ التى تنتشر فى المجتمع.

يبدو أننى قد رسمتُ صورةً قاتمة، يظهر فيها التعثر وكأنه قدر لا فكاك منه. ولكن هناك الكثير من الشخصيات التى تنجح فى فرض إرادتها،

وتغيير مصيرها، ورسم مستقبلها فى أصعب الظروف. هذه الشخصيات قامت على أكتافها الحضارة البشرية.

السمة الاساسية التى تميز القهر هى أنه يكون بين إنسان وإنسان. إن المال أو المبدأ أو العقيدة أو الفلسفة هم أوثان يستخدمها إنسان لقهر إنسان آخر. لاحظ أن هذه الأمور فى حد ذاتها قد تكون جيدة، ولكن مبدأ القهر فى حد ذاته لا يمكن أن يؤدى إلى نتائج جيدة. وبهذا يمكن تعريف الوثن بأنه "مجموعة من الميمات الثقافية المترابطة محاطة بسياج من الحماية المقدسة، لا تقبل التعديل أو التطوير رغم أنها لا تصمد أمام التقصى العلمى أو التحليل الموضوعى، يستخدمها المتسلط لإحكام سيطرته على العبيد، عن طريق الربط بينها وبين توازنهم النفسى المريض. فالوثن يجذب العبيد كما يجذب الضوء الحشرات، فيتجهون إليه غير

مبالين بأية أخطار تحيط بهم."

والإنسانُ المقهور الذى تعوَّد على لعب دور العبد، يستغل وجود إنسان أضعف منه، ويمارس معه دور السيد بنفس الطريقة التى تعود أن تمارس ضده. فعندما يشترك عدد كبير من الناس فى سلوك غريب يفقد غرابته، ويصبح هو العادى والمألوف.

إن قوة القهر تسحق شخصيتك وتمحوها عندما تفرض عليك أوامر لا تنبع من ذاتك. وأنت تشارك فى ذلك بسبب كسلك وتواكلك وعدم ثقتك فى قدراتك. إنها تفرض عليك أن تحبها مهما كانت قسوتها. وتفرض عليك أن تقتنع بأفكارها مهما كانت غير مقنعة. وتفرض عليك أن تتبنى قِيَمها وميماتها مهما كانت غريبة. باختصار هى تفرض عليك أن تتصرف وتفعل كما تشاء إرادتها هى، وفى نفس الوقت يجب أن يتوافق ذلك مع إرادتك أنت، مهما كانت النتائج على أرض الواقع

مخيبة للآمال. فالنتائج صواب ليس لأنها صواب، ولكن لأن قوة القهر تريد ذلك. وإن أى قصور لابد أن يكون نابعاً منك أنت، فأنت لم تكن عبداً مخلصاً طوال الوقت.

ولما كان كل ذلك يتناقض مع طبيعتك الإنسانية، فإن هذه الطبيعة يجب أن تُقهر وتنسحب وتُكبت فى اللاشعور، ليحل محلها شخصيتك البدائية الطفلية غير الناضجة، فى محاولة منك للتمسك بالحياة وتجنب الجنون. فشخصيتك الطفلية هى الأنسب للتعامل مع قوة القهر.

إن الملك الشرعى قد تم عزله وحبسه فى سرداب مغلق، وحل محله نائب الملك الضعيف عديم الخبرة لكى يقوم بتصريف الأمور. إن نسخة الويندوز الحديثة فى جهاز الكمبيوتر قد تم استبداها بنسخة قديمة، مطلوب منها أن تقوم بإدارة ملفات كانت معدة أصلاً للاستخدام بواسطة

النسخة الحديثة.

يعلمنا فرويد أن اللاشعور منطقة مظلمة فى الجهاز النفسى، يتم فيها كبت كل الدوافع والمشاعر والأفكار والانفعالات التى قد تسبب خطورة إذا ما ظهرتْ فى الشعور بسبب إستحالة إشباعها. ولكنها هناك فى اللاشعور تظل تعمل وتؤثر بطريقة غير مباشرة. مثال ذلك الدوافع الجنسية والعدوانية. وكان ذلك هو أعظم إنجازات فرويد على الإطلاق.

ولكننا هنا فى حالة التعثُّر، نتحدث عن كبتٍ كامل للشخصية تحت ضغوط القهر الخارجى، وإحلال نسخة قديمة من الشخصية مكانها. إن قوة القهر لا تسيطر على ضمير الإنسان فقط، ولكنها تقهر الشخصية بأكملها، بكل مكوناتها من طبع وعقل وضمير. لذلك فإننا نتحدث هنا عن قوة قهر خارجية بمعنى الكلمة، وليس فقط عن ميماتها

التى زُرعت فى الضمير.

وكان فرويد قد لاحظ أن كل حالات الاضطراب النفسى التى أطلق عليها اسم: العصاب، تتشابه فى مظاهر الشخصية الطفولية غير الناضجة، وعزا ذلك إلى كبت المشاعر العدوانية والجنسية فى اللاشعور.

ولكن حالة التعثر التى نحاول دراستها هى الحالة العامة التى لا يشترط أن تظهر عليها أعراض العصاب. إن كبت العدوانية والجنسية فى رأيى هو أمر طبيعى تستطيع الشخصية احتواءه. أما كبت الشخصية القابلة للنمو بصفة عامة نتيجة التعرض لقهر خارجى فهو الأمر الذى يزلزل الشخصية بأكملها، ويسبب كل أنواع السلوك غير السوى. ويبدأ ذلك بالحالة العامة التى نسميها تعثراً، وقد يتطور الأمر أو لا يتطور إلى الحالة المرضية التى صنّفها فرويد تحت اسم العصاب.

ويعتمد هذا التطور على تدخل عوامل أخرى عضوية في أغلب الأحيان، كأن يكون هناك خلل في هرمونات معينة بدأ الطب في اكتشافها في هذا الزمان.

ولكن انتشار التعثُّر بشكلٍ وبائىّ، يجعل الأمر يبدو وكأنه أمر عادى، ويجعل اللامعقول يبدو وكأنه معقول. ويجعل القهر أو التسلط يبدو وكأنه قدرٌ لا فكاكَ منه. ويجعل الشغل الشاغل للبشر هو كيفية استبدال السيد بسيدٍ آخر. أو تعويض خضوعنا للمتسلط بفرض إرادتنا على الضعيف. والعجلة تدور، ومساحة البؤس والشقاء تزداد، ولا أحد يبالى. ورغم كل ذلك، فإن الطبيعة البشرية لها رأى آخر.

إن الملك الشرعى الذى تم عزله وسجنه فى سرداب مظلم، يظل يصرخ بحيث يزلزل صوته جدران السجن. إن الأمر معقد. فنائب الملك الذى

تولى القيادة ربما يبدو أنه يقود المملكة نحو بر الأمان، ولكنه فى الواقع يتلقى الأوامر من قوة القهر الخارجية. وقوة القهر هذه ربما تأمر بالحق والعدل والفضيلة، ولكنها لن تتنازل أبداً عن سطوتها، ولن تحرر العبيد. لهذا فإن صرخات الملك الحبيس ترفض كل القرارات التى تحدث فى الخارج بخيرها وشرها ما دامت لم تصدر من خلال إرادة حرة كاملة السيادة. هنا يتحول الملك الحبيس إلى شبح متمرد، لا يهدف إلا إلى إفساد الأمور، وتعريض سلامة المملكة للخطر.

هذا هو ما يحدث بالفعل داخل الجهاز النفسى الثقافى للإنسان. فقد تم كبت الشخصية التى كان يفترض أن تكون حرة ناضجة، واستمرت الشخصية الطفلية فى العمل، متلقية الأوامر من قوة القهر الخارجية. وهى بهذه الطريقة تحقق بعض التوازن الذى يمكن اعتباره فى ضوء دراستنا توازناً زائفاً.

لكن الطبيعة الإنسانية المكبوتة التى لم تنسَ بعدُ الأمرَ الجينى الذى يدعوها إلى تحمُّل مسئولياتها بكل حرية دون الرضوخ لأى قهر خارجى، لا تستسلم لهذا الوضع، وتتحول إلى قوة هدَّامة، تضغط بشدة من موقعها فى الظلام، داعيةً لإفساد كل شىء. إنها تدعو أولاً لإفساد العلاقة بين العبد وسيده، أى بين الفرد المُستَلَب وبين قوى التسلط التى سلَّم لها حريته. وتدعو ثانياً لإفساد كل الأمور الفرعية التى نتجتْ من هذه العلاقة. وهذا هو المقابل النفسى لفكرة الشيطان المتأصلة فى الثقافة البشرية. فهذه القوة الرافضة هى شبح لم يتحول أبداً إلى حقيقة. وهذا هو سر لا معقولية العلاقة.

التعثُّر يُنتج علاقاتٍ بين أسياد مستبدة وعبيد متمردة، فى وقت يفترض فيه أن تكون العلاقات بين البشر مبنية على التساوى والفردية

والاستقلالية. ولا يغير من ذلك ما إذا كان المستبد ظالماً أم عادلاً. الأمر فى الحالتين ضد الطبيعة الانسانية. والنتيجة هى أن هؤلاء لا يصلون أبداً إلى الوضع السوى ولا يشعرون حتى بإمكانية وجوده.

أحد أسباب التعثُّر هو أن الإنسان يوم كان طفلاً لم يأخذ حقه كما يجب من العلاقة السوية مع السلطة. (الأبوين ـ رجال الدين ـ المعلمون ـ القادة) فقد كانوا هم أيضاً يعانون من التعثُّر.

المتعثر قضيته الأساسية هى العبودية. وهو مشرك متعدد الآلهة رغم أنه يدّعى التوحيد. إنه لا يتنازل أبداً عن أوثانه القديمة، ويبحث عنها دائما فى الأب والرفيق والزعيم والعقائد الدينية واللادينية. فيهتم دائماً بالمظاهر والطقوس والتعصب والسحر وتقديم القرابين وتقديس السلف. وحتى إذا لم يكن طرفُ العلاقةِ الآخر

موجوداً فى العالم الواقعى أو كان موجوداً واختفى، فإنه يتخيله ويعيش ويتفاعل معه بحيث يحوله إلى حقيقة داخل عالمه النفسى.

عندما يكون المتعثر فى موقع السلطة، فإنه يتخلى عن دور العبد ، ويلعب دور السيد ، ويعامل ابنه أو ابنته أو رفيقه أو تابعه بنفس الطريقة التى تعود أن تعامله بها السلطة.

والمتعثر بقدر ما هو مزعج بقدر ما يستجيب بسهولة للرشوة التى تقدمها له شخصيات طفيلية، تصنع له أصنامه، وتغيرها عند اللزوم، وتخلط له الخير بالشر، وتستعبده بطريقة غير مباشرة. وهو لا يلاحظ أبداً أن تلك الشخصيات تستعمل بلا تردد نفس الحرية التى سلبتها منه.

ورضاء المجتمع عن حالة التعثر، وتكيُّفه مع التفكير السحرى والطقوس غير المعقولة، لا يعبر

إلا عن عدوى جماعية، وتكيف القطيع مع وضع غير مقبول أصلاً.

والمتعثر الذى يستغرق فى إيمان غير عقلى، يعيش أحياناً حالات من الشك غير العقلى، الذى يلوّن حياته انفعالياً وفكرياً. وأكثر درجات الشك غير العقلى تطرفاً هو الإرغام العصابى على الشك فى كل شىء. وعندما يعجز شلل الإرادة عن تبين جذور العجز لديه، فإن أحد الحلول البديلة هو العودة إلى إيمان غير عقلى، يغطس فيه هو وشكوكه، ويتشبث به، ويتعصب له، ولا يتزحزح عن موقفه، فخوراً بقوة إيمانه.

إن المتعثر الذى يفتقر إلى الإنتاجية، قد يشعر بأنه شقىٌّ محبطٌ، فيشغل نفسه بأن يخطف من الحياة أيّة إشباعات تعوّض فشله، ويصبح إنساناً أنانياً يريد كل شىء لنفسه، ولا يشعر بأيّة سعادة فى العطاء، ويمضى فى الحياة عاجزاً عن حب الغير وعن

حب نفسه.

إن انسداد السبيل أمام تفتح القدرات الانفعالية والحسيّة والجسديّة والفكريّة للشخص المتعثر إلى حد إحباط قدراته الإنتاجية، يجعل الطاقة التى سد السبيل أمامها تتبدل وتتحول إلى طاقة مدمرة للحياة. وفى هذه الحالة يُستخدم الحبُّ والواجبُ والضميرُ والوطنُ والدينُ كأقنعةٍ لتدمير النفس أو الآخرين. فالدوافع التدميرية تنجح دائماً فى أن تجد موضوعاً.

إن الضمير التسلطى الذى قد يتميز به الفرد المتعثر مشغولٌ دائماً بالطاعة والواجب والانضباط، ويعامل صاحبه بقسوة غير عادية. ولكنه يستطيع عند اللزوم توفير غطاء شرعى وقانونى يغرق من خلاله صاحبه فى الشهوات. ورغم كل ذلك فإن هذا الضمير لا ينجح أبداً فى الوصول إلى درجة معقولة من الرحمة والتسامح.

إن المتعثر بعد أن يسلم مصيره لقوة القهر الخارجية يتنصل تماماً من أية مسئولية. ولكن العلاقة الخبيثة بين القوة المسيطرة على الشعور التى تدعم هذا الوضع، والقوة المسيطرة على اللاشعور التى ترفضه تكون هى العلاقة الرئيسية التى تتدخل فى كل الامور، وتحدد مصير الإنسان. فكل سلوك هو محصلة قوى شعورية تعمل فى النور، وتطيع القهر الخارجى الذى سكنت مبادؤه فى الضمير المسلوب، وقوى لا شعورية تعمل فى الظلام وتتمرد عليه. ومن الآن فصاعداً تتحول العلاقة بين طاعة المتسلط والتمرد عليه، إلى علاقة بين الشعور المطيع واللاشعور المتمرد.

ونلاحظ أن العلاقات التى يكون لها التأثير الأكبر على حياة الإنسان، وتساهم إلى حد بعيد فى تحديد مصيره، ليست هى العلاقات العامة بين الفرد والمجتمع، ولكنها علاقات نوعية محددة

علقت بها الشخصية بحيث أصبح الفكاك منها أمراً فى غاية الصعوبة. هذه العلاقات تكون بين الفرد وأفراد آخرين داخل المجتمع، يشكلون أهمية خاصة لديه، وتتداخل مصالحهم مع مصالحه، ولهم الكثير من السلطة والنفوذ والتأثير على عالمه، ويحملون الكثير من الروابط مع غرائزه وعواطفه وتفكيره وضميره، بحيث يصلون بسرعة إلى مرتبة السادة أو الأصنام بالنسبة له. ومن أمثلة هؤلاء الأب أو الأم أو الملك أو الزعيم أو المدرس أو رجل الدين أو رجل المال. ويصب هذا الميراث الثقيل فى العلاقة بين الرجل والمرأة، تلك التى يتبادل فيها الطرفان دور السيد والعبد ظاهرياً، بينما يعانى كل طرف من ضغوط داخلية تدعوه إلى نسف هذه العلاقة المريضة من أساسها.

يرى فرويد أن غاية التطور الإنسانى هى أن يتغلب على التثبيت الطفولى، وأن يتعلم كيف

يواجه الواقع، ويستخدم عقله استخداماً سليماً. كما يرى أن الإنسان الذى حرر نفسه من نير السلطة التى تحمى وتهدد، هو وحده الذى يستطيع استخدام قوة عقله وإدراك الكون ودوره فيه إدراكا موضوعيا دون وهم.

ويرى إريك فروم أن خصوصية وجود الإنسان تفرض عليه تناقضات لابد من حلها، حتى يصل إلى نوع من التوازن النسبى فى حياته. هذه التناقضات هى: الانقسام بين العقل والجسد، وبين الحياة والموت، وبين الوحدة والارتباط.

وفى كتابه (الدين والتحليل النفسى)، يبين إريك فروم كيف أن الشخص الذى لم ينجح فى إدماج طاقاته نحو الأهداف السامية، يُسيّرها فى اتجاه الأهداف الأدنى. فإذا لم تكن لديه صورة عن العالم وموقفه فيه قريبة من الحقيقة، فإنه سوف يخلق صورة وهمية يتشبث بها.

وفى كتاب (سيكولوجية الإنسان المقهور)، يرى المفكر اللبنانى الدكتور مصطفى حجازى أن الإنسان الذى يقع طرفاً فى علاقة تسلط، يعانى من القهر الإنسانى، وعدم الإحساس بالأمان، والإحساس بالعجز أمام المصير، وفقدان الكرامة الإنسانية، والإحساس بالتهديد المستمر، واختلال التوازن، وفقدان الإحساس بالذات الفردية ونمو علاقة التسلط والخضوع على كل المستويات، والمهانة والانحطاط والدونية، والإحساس بالذنب، والقسوة على الأضعف، والإعجاب بالمتسلط والتوسل له، والكذب والخداع .

وهذا يجعله يعانى من عقدة النقص، حيث يشعر بالتهديد الدائم، والخوف من الطبيعة والسلطة والآخرين، ورفض أى جديد، وانتظار البطل المخلص، والشعور بالغربة، وانحسار الذات، والاستسلام للأمر الواقع.

كما أنه يعانى من عقدة العار، حيث يخشى افتضاح بؤسه وعجزه، و يهتم بالمظاهر، ويبحث عن السترة التى تحمى الكرامة المهددة، مما يؤدى إلى اضطراب الزمن، وتضخم الآم الماضى، وتأزم معاناة الحاضر، وانسداد أفق المستقبل، و تضخم العدوانية المقموعة، والهروب إلى الماضى الخرافى وأوهام الخلاص السحرى والمخدرات والفن والملاحم الشعبية.

٧
قوى القهر

إذا كانت الاغلبية العظمى منا لم تنضج بما يكفى، ولم تحقق ذواتها ، ولم تمارس دورها فى العمل الخلق والإبداع، ثم سلمت إرادتها طواعية لقوى القهر والتسلط لكى تفرض رؤيتها التى لا تتوافق مع الطبيعة الإنسانية، فإن معنى ذلك أن معظمنا تحت تأثير قوى القهر يعانى جزئياً من أعراض التثبيت الطفولى والتوازن الوهمى والقهر والعبودية ونصف الجنون والتدين الوثنى التى أعطيناها عنواناً كبيراً فى النهاية هو (التعثر).

ولكن ماهى بالضبط قوة القهر التى تخترق شخصيتنا وتشطرها إلى نصفين: عبد مطيع فى الشعور، وشبح متمرد فى اللاشعور؟

الجواب هو أننا نحن أنفسنا قوة القهر هذه. فنحن نقهر بعضنا بعضاً فى سلسلة تبادلية لا تنتهى. نحن المتعثرون وقوة القهر فى نفس الوقت. فكل منا يبحث عن شخص قوى يخضع له، وشخص ضعيف

يُخضعه ويتسلط عليه. ولكى نُضفى الشرعية على تسلطنا، فإننا نزرع فى الضمائر كل المبادىء والقيم التى تدعم حجتنا. نحن مذنبون وضحايا فى نفس الوقت. الغريب هو أن علاقات القهر تخرج من بين علاقات إنسانية حقيقية فيها كل مشاعر الحب والتعاون والإخلاص.

كلنا متسلطون صغار. ولكن الآباء، والقادة، والزعماء، والملوك، والدعاة، والمعلمون، والمستعمرون، والمرابون، هم المتسلطون الكبار. إنهم السلطة المعلومة التى ترعانا وتحنو علينا بيد، وتقهرنا باليد الأخرى، بحجة ضعفنا وعدم قدرتنا على تحمُّل مسئولية أنفسنا.

وقد طورت قوى القهر والسيطرة من نفسها تدريجياً على مر العصور. فظهر الطفيليون الذين خرجوا من بين العبيد. هؤلاء تربوا أصلاً فى خدمة السلطة المعلومة، ثم تسلقوا على أكتافها. وأخيراً

ظهرتْ السلطة المجهولة التى خرجت من بين الطفيليين، ونجحت فى السيطرة على مقدرات هذا الكوكب، ووظفت الجميع لخدمتها، فى بناء هرمى متقن.

أولاً
السلطة المعلومة

الآباء، والقادة، والزعماء، والملوك، والدعاة، والمعلمون، والمستعمرون، والمرابون، هم المتسلطون الكبار. هم السلطة المعلومة التى ترعانا وتحنو علينا بيد، وتقهرنا باليد الإخرى، بحجة ضعفنا وعدم قدرتنا على تحمل مسئولية أنفسنا. السلطة المعلومة ليست عدواً. إنها القوة الكبيرة التى تحمينا، ونُكنُّ لها كل احترام. إنها تملك المكانة والمال والغطاء الشرعى والقانونى المناسب. كما أن لها دعماً كاملاً من الدين والفلسفة والحاضر والماضى. كذلك فإن لها روابط قوية مع غرائزنا وعواطفنا وأفكارنا وضمائرنا.

المشكلة تبدأ عندما تظهر على هذه السلطة معالم الاستبداد، فتتجاهل الظروف المتغيرة وتأثير الزمن والتطور، وتروج بأن لها حقاً مقدساً. والسبب فى ذلك هو فشلها أمام الانتخاب الثقافى الذى كانت قد نجحت فيه من قبل، والذى هو مصدر

شرعيتها. أى أنها قد فشلت فى تقديم حلول حقيقية لمشاكل الناس، تحمى حرّياتهم، وتواكب المتغيرات الخاصة بالزمان والمكان والظروف المتجددة. هنا تبدأ هذه القوة فى قهر إرادتنا، وإسقاط فشلها علينا، واستخدام كل الطرق الممكنة لإقناعنا بأن ضعفنا وتخلفنا هو المبرر لاستبدادها.

وبدلاً من أن يكون ولاؤنا لها ناتجاً عن حب ومشاركة حرة وقناعة حقيقية، نجد أنفسنا فى مأزق حقيقى لابد له من حل. إن التناقض الخارجى الناتج من ضغوط قوة القهر علينا ومحاولة فرضها لواقع يتعارض مع طبيعتنا الإنسانية، يتحول إلى تناقض داخلى وانقسام فى شخصيتنا، ما بين جزء موالى لها وجزء معارض، ويبدأ التعثر. إن الفشل فى الانتخاب الثقافى يؤدى إلى القهر، الذى يسبب التعثر، الذى يؤدى إلى المزيد من الفشل، ويطلب المزيد من القهر، وهكذا، فى دورة لا تنتهى.

ثانياً

السلطة الطفيلية

ما أن يتعرض الفرد منا لعملية قهر ويتعود عليها ويشعر بقوة الحبل وهو يلتف حول عنقه، حتى تتولد لديه قناعة بأن النضج والحرية هى أمور خيالية لا تمت إلى الواقع بصلة. عندها يبحث عن الحل فى اتجاه آخر. إنه يبحث عن كائن ضعيف يمارس معه نفس اللعبة التى تعلمها. وهو قد يفعل ذلك بحجة حماية الفرد الثانى، وهى نفس الحجة التى استخدمتها القوة التى قهرت الفرد الأول.

وحيث أنه لا يستطيع تحقيق ذلك بسهولة، فإنه يتسلل بنعومة إلى نقاط ضعفه، ويستخدم تلك الآليات التى نسميها: تطفل. كل هذا يتم بينما علاقات المصالح والعلاقات الإنسانية من حب أو عدوانية تمضى أيضاً فى طريقها. وبهذا فإنه يمكن تعريف التطفل بأنه: **"قدرة البعض على استغلال نقاط الضعف لدى الآخرين"**

الطفيلى يربط وجوده بوجودك حتى لا يمكن

التخلص منه دون خسارة فادحة. كما أنه حسّاس جداً لنقاط ضعفك ومواطن قوّتك، يمتلك مرونة عالية، وقدرة كبيرة على التكيُّف.

الطفيلى سوف يراقب تعثرك ويلمس نقاط ضعفك ومواطن قوتك. يعرف متى يستخرج غضبك؟ ومتى يستجدى رضاك؟ سيعطيك ما تحتاجه فى البداية، ويحرص على أن تظل مديناً له بلا نهاية، ثم يظل يعدد تضحياته وأفضاله عليك بلا ملل. سيدّعى أنه يساعدك بلا مقابل رغم أن طموحاته بلا حدود. وفى النهاية يجب أن تجوع لكى يشبع، وتثور لكى يهدأ، وترتعد لكى يشعر بالأمان.

التطفل يأتى من الخارج مع المثير الذى يحرك غرائزنا الحيوانية، أو عواطفنا العدوانية، أو تفكيرنا اللامعقول، أو ضميرنا التسلطى، أو كلهم مجتمعين، ثم يجعلنا نسلك سلوكاً ذا طبيعة

حيوانية، أو عدوانية، أو لامعقولة، أو تسلطية، ثم يلومنا بعد ذلك على ضعفنا وسوء تصرفنا. وكثيراً ما يتسرب التطفل إلينا مختلطاً بدوافع طيبة يتخفى داخلها حتى لا يُكتَشَفْ أمره.

التطفل يخترق جهازنا النفسى فى الظلام، ولا يُظهر أبداً وجهه الحقيقى. فالتطفل كله غير مرئى، والأساس النظرى الذى يحكم أفعاله كله غير مرئى. لذلك فإنه يعمل بحرية، ويحقق نجاحات بدون مقاومة، ويعتبر أن كل من يقف فى طريقه واهم.

والأخطر من ذلك يحدث عندما يصطحب التطفل معه مُعزِّزاً خبيثاً، يقدمه مكافأةً للضحية بعد أن تستجيب له. هذا المعزز قد يكون مالاً، أو مصلحة، أو حماية، أو إشباعاً لدافع شهوانى أو عاطفى أوعدوانى، أو غير ذلك.

إن قبول التعزيز هو القرار الخطير الذى قد نتخذه دون تبصُّرٍ أو روية، ولكنه يؤثر فيما بعد على كل مجريات حياتنا. إنه يعنى تسليم الإرادة وقبول الاستعباد واستعدادنا للانتقال من دور الضحية إلى دور الشريك. فقد أصابتنا عدوى التطفل، وأصبحنا نحن أنفسنا نبحث عن ضحية جديدة نتطفل عليها تعويضاً عن تسليم إرادتنا للمتطفل.

وعندما يتكرر الأمر فإنه يتحوّل إلى عادة لا يمكن التخلص منها. هنا يكون التطفل قد استعبد الشخصية كلها، وجعلها تعمل لحسابه، وضمها إلى مملكة التطفل العالمية التى تشبه مملكة دراكولا، وتضم كل يوم ضحايا جدد عن طريق القبلة الرهيبة.

إن أخطر ثغرة يتسلل منها التطفل موجودة فى باب الأخلاق. وهى تعتمد على جهلنا بالمعنى

الحقيقى للخير والشر. فالتطفل يتظاهر بطاعة القيم التى تفرضها قوى القهر المرئية فى المجتمع. ويساعده على ذلك أن هذه القيم مخترقة منذ البداية رغم ما تتمتع به من حماية وتقديس. ومن هنا تبرز أهمية وجود تعريف جديد للخير والشر.

وعندما يتحول التطفل الفردى إلى تطفل مؤسسى يبرز مصطلح (الخبراء الزائفون)، الذى قدمته فى كتب سابقة واليوم أعيد مناقشته لأهميته القصوى **"الخبراء الزائفون هم شخصيات طفيلية تتشكل فى كل مجتمع وتنظم نفسها جيداً وتشق طريقها نحو القمة."**

هذه الشخصيات تؤثر بقوة فى حياتنا وتستنزفنا لكى تحصل على الدعم اللازم لبقائها. الخبير الزائف يشارك المجتمع خبزَه ولا يشاركه أهدافَه. إنه يستمدُّ حياتَه منَّا ورغم ذلك يعمل على سلب إرادتنا والتحكم فى أرزاقنا.

لكى يتقدم أى مجتمع يجب أن يكون غنياً بفريق من الخبراء الحقيقيين الذين يعملون بإخلاص لدعم الاقتصاد والدين والعلم والقانون فى البلاد. ولكى يسقط نفس المجتمع يجب أن يكون مبتلياً بفريقٍ من الخبراء الزائفين الذين يستغلون إنتاج الفريق الأول. فالمجتمع الصالح يصنع خبراءً حقيقيين. والخبراء الحقيقيون يصنعون مجتمعاً صالحاً. والمجتمع الفاسد يصنع خبراءً زائفين. والخبراءُ الزائفون يصنعون مجتمعاً فاسداً.

الخبير الحقيقى يقود العمالة القوية الصالحة المدربة نحو القمة. والخبير الزائف يقود صغار النفوس والوصوليين ومدعى العلم والمنافقين نحو القمة أيضاً. الخبير الزائف يستطيع أن يصل إلى أعلى المراكز، فهو يستطيع استخدام المال لتحويل الناس إلى أسياد وعبيد. ويستطيع أن يروّج للأكاذيب كما لو كانت حقائق. ويستطيع أن

يجعل القانون سيفاً على رقاب الناس، لاوسيلة لنشر العدل وترتيب البيت.

إن الإنسان المتعثر الذى يحتاج إلى الدعم يصطدم حتماً بالخبراء الزائفين. فإذا طلب المال وجده فى يد الخبراء الزائفين. وإذا اتجه إلى الدين كان عليه أن يمر من بوابة الخبراء الزائفين. وإذا اتجه إلى العلم وجدهم هناك. وإذا اتجه إلى القانون وجدهم أيضاً هناك. يوجِّهون المجتمع نحو المستقبل الذى يريدونه. ولايكتفون بتزييف الماضى والحاضر، بل يستعدون أيضاً لتزييف المستقبل.

الخبراء الزائفون يتحكمون فى شرايين الحياة. يتسللون إلى ضمير المجتمع ويؤكدون له أن الجميع مدينون لهم، والحياة مستحيلة بدونهم، والتخلص منهم هو درب من الخيال. إنهم يلتصقون بكل أمورنا المالية والدينية والعلمية والقانونية. أهدافهم

تتغذى على أهدافنا، وإرادتهم تقوم على سلب إرادتنا، وضمائرهم لا تصفوا إلا إذا نقلوا إلينا خطاياهم.

يستخدم الخبراء الزائفون مهاراتهم فى التبرير؛ من أجل إعادة صياغة المبادئ والقيم والأخلاق بما يتفق مع مصالحهم. وبالتالى يُعاد توجيه السياسات والأيديولوجيات وحتى الأديان لخدمة التطفل. لأن هذه هى المفاتيح التى تقود الأفراد والمجتمعات على السواء.

وما دام لا يوجد وعىّ أو مقاومة فإن كل شيء يصبح قابلاً للاختراق، بما فى ذلك أكثر المذاهب مرونةً واعتدالاً، وكذلك أكثرها انغلاقاً وتحفظاً. المذاهب المرنة يمكن اختراقها بتعديلها وتطويرها بما يخدم التطفل. والمذاهب المغلقة يمكن اختراقها بتزوير نصوصها أو إعادة تأويلها وتبريرها بما يخدم نفس الأهداف.

ويوجد أنواع مختلفة من الخبراء الزائفين. فهناك خبراء الدين، وخبراء العلم، وخبراء القانون، وخبراء السياسة، وخبراء المال. كما أن هناك خبراء محليون، وخبراء إقليميون، وخبراء دوليون. إنهم جميعاً يختلفون عن الخبراء الحقيقيين فى أنهم يحتكرون تجارتهم، ويضفون عليها طابع الثبات والتقديس، ويحيطون أنفسهم بعدد كبير من الأتباع، ولا يحتكمون إلا إلى مصادرهم المقدسة، التى تعود غالباً إلى مصدر قديم له مكانة خاصة بينهم. إنهم يرفضون الاحتكام إلى القواعد العلمية الحقيقية حتى لا يتعرضوا للضوابط التى يفرضها العالم على نفسه، ويصرون على تبرير العلم بطريقة غير علمية، ثم يعودون ويتحدثون عن الإعجاز العلمى.

ولا يخيف الخبير الزائف إلا خبيراً زائفاً آخر محاطاً بأتباع أكثر عدداً وأشد جنوناً. لهذا فإنه

عادة ما يبث مشاعر الكراهية بشدة بين أتباعه وبين الآخرين.

وما دام الفرد متعثراً لا يعرف معنى الحرية، مصراً على عبادة الاوثان، فإن تجارة الاوثان تظل هى أعظم التجارة ربحاً. فالخبراء الزائفون يسيطرون على المتعثرين ويضعونهم فى الصفوف الأمامية. والمتعثرون يمثلون ثروة بالنسبة لهم. إذ يكفى أن تصنع للمتعثرين الصنم المناسب، وسوف يطوفون حوله ويؤدون الطقوس المطلوبة. ولا بأس من أن تقسمهم إلى فريقين، وتصنع لكل فريق صنمه المقدس الخاص، حتى تجدهم يصطدمون حتماً ببعضهم البعض، وتتكسر رؤوسهم.

وكلما ازدادت معاناة المتعثرين التفوا حول أصنامهم أكثر. وصانع الأوثان هو فقط من يعرف قواعد اللعبة. فيُلمِّع الأصنام ويسوِّقها فى الوقت الذى يحلو له، وهو واثق دائماً من الاستجابة، لأنه

وحده يعرف متى يخترق القِيَم ويحولها إلى أصنام. كما أنه واثق من النجاح، لأنه يعلم مسبقاً أن هذا يلائم مزاج الزبائن.

الانسان المتعثر يُفضّل الخضوع للخبراء الزائفين عن أن يُغيِّر من نفسه. هذه الحقيقة يدورُ حولها كل شيء من تاريخنا حتى مصيرنا. فمازال تعثرنا هو الذى يعطى شرعية لاستعبادنا.

أنت بطريقة لاعقلانية تقدس المتسلط، وتقدس السلف، وتقدس الوطن، وتقدس الزعيم، وتقدس الديمقراطية، وتقدس فريق كرة القدم، وتعادى بنفس الطريقة كل من يخالفك. وهذا يجعلك بعيداً عن الحب والعداء الطبيعيين. ويجعلك محاطاً بقيودٍ لا تحاول الفكاك منها. ويجعلك مرتبطاً بغيبيات غير منطقية. ويجعلك أبعد ما تكون عن إنسانيتك، وعن قدراتك التى لا تريد أن تستعملها. ويجعلك أخيراً أداةً لينة فى

يد من يعرفون نقاط ضعفك، ويقدمون لك البضاعة التى تبحث عنها، ويستعبدونك مقابل ذلك.

المشكلة هى أنك مسلوب الإرادة ومستعبد بموافقتك. وإذا تصادف واستردت حريتك، فإنك تسرع بتسليمها إلى متسلط جديد. وكلما زاد بؤسك، كلما سقطتَّ فى العبودية أكثر، وزاد بؤسك أكثر وأكثر. والأهم من ذلك هو أنك تُصدِّر عدوى العبودية إلى أولادك.

الخبراء الزائفون يعتبرون أنفسهم مندوبو الإله على الأرض، يمتلكون صكوك الغفران، ويحتفظون لأنفسهم بامتياز استعباد البشر. إن خوفنا يمدهم بالشجاعة ليقولو ما يشاءون، ثم يعودون فيتناقضون مع أقوالهم السابقة دون حياء أو اعتذار. إنهم يستعملون الحرية التى صادروها منا بلا تردد.

عندما يقدمون لك وثيقة مقدسة، فإنك لا تهتم بالمضمون، كل ما يهمك هو الشكل، والخشوع، والوقار، والمكان، والجو المهيب المقدس، وطريقة العرض، والقوة والثقة التى يتمتع بهما الخبير، والعدد الكبير من الأتباع. هذا هو العنوان الذى يقدم لك رسالة الاطمئنان ضد الذعر الذى تعانى منه بفضل إحساسك بضعفك وكسلك وغبائك وخطيئتك. وبهذا تصبح متعثراً جيداً تنتظر إشارة لكى تنقض على متعثر يتبع خبيراً آخر. وإن عقلك الغيبى اللامعقول يجعلك مستعداً لقبول كل التبريرات التى ترى فى هذا الهجوم كل الحق، وكل العدل، وكل العلم، وكل المنطق.

هناك تعاقد خفى بينك وبين الخبراء الزائفين، تعدهم فيه بتصديق كل فتوى يصدرونها، مقابل أن يقدموا لك صكوك الغفران

التى تنتظرها. وهم يعلمون جيداً قيمة السلعة التى بين أيديهم، ويبيعونها لك بأغلى الأثمان. والثمن ليس أقل من حريتك الكاملة.

العلماء يناقشون قضايا معقولة يمكن إثباتها وتعديلها وتطويرها. مرجعهم العلم وجمهورهم من العقلاء. أما الخبراء الزائفون فإنهم يناقشون قضايا غيبية لا يمكن إثباتها. مرجعهم خبراء زائفون آخرون حقيقيون أو وهميون، وجمهورهم من أنصاف المجانين.

ثالثاً
السلطة المجهولة

يحكم العالم اليوم سلطة مجهولة تظهر بصماتها بوضوح فى كل الأحداث الكبرى التى تحدث فى العالم. ويمتد تأثيرها ليصل إلى كل سلوكنا ومعتقداتنا وحاضرنا ومستقبلنا.

استعانت هذه السلطة بخلاصة النتائج التى توصل إليها الفلاسفة والعلماء من أجل إحكام سيطرتها على العالم. وتمكنت بالفعل من توحيد قوى القهر المبعثرة فى بناء هرمى يتكون من طبقات تقهر كل منها الأخرى، بحيث تستوعب كل طبقة الطبقة التى تليها، ولا تستوعب الطبقة التى تعلوها، حتى نصل إلى أعلى طبقة على قمة الهرم، وهى طبقة السلطة المجهولة نفسها التى لا يراها أحد. بهذا يكون هناك أماكن مُعدة سلفاً فى ذلك البناء الهرمى لكل قوى القهر التقليدية المختلفة.

وقد أجادت هذه السلطة فنون استخدام وسائل القهر المختلفة من أجل السيطرة على الأفراد والشعوب. وتمكنت من فرض إرادتها على الجميع. وكان العامل الحاسم في وصولها إلى تحقيق أهدافها هو قدرتها على الوصول إلى فهم عميق للطبيعة البشرية ونقاط ضعفها لم يصل إليه أحد من قبل.

٨
وسائل القهر

وسائل القهر عادةً ما تنقسم إلى قسمين: الأول: السيطرة على الشخصية من الخارج عن طريق صناعة العبيد. والثاني: السيطرة على الشخصية من الداخل عن طريق صناعة الأوثان. وإن نجاح القسم الأول من وسائل القهر يعتبر خطوة مهمة وضرورية تمهد الطريق نحو ضمان نجاح القسم الثاني.

أولاً
صناعة العبيد

هنا تحاول قوة القهر إقناعك بأن كل مصالحك تمر من خلالها. إن قوة القهر هى التى تعطى أو تأخذ. هى التى ترضى أو تغضب. هى التى تعطف أو تعاقب. هى التى تحمى أو تهدد. إنها تبدوا وكأنها هى التى تهب الحياة نفسها.

ولا تكتفى قوة القهر بذلك، بل إنها تفرض عليك نوع الحياة التى تعيشها، وتحدد لك ما تحتاجه وما لا تحتاجه، وتحيطك بشبكة من المصالح لا تستطيع الفكاك منها، وتحولك إلى شخصية اتكالية خائفة كسولة تجهل إمكانياتها وتعتمد على قوة القهر فى تصريف كل أمور حياتها. إن قوة القهر فى هذه المرحلة تحاول السيطرة على عالمك من الخارج تمهيداً لاختراقه من الداخل.

ويبين لنا علم النفس السلوكى كيف يتم تشكيل السلوك وتحويله إلى عادة باستخدام

مثيرات ما قبل السلوك، وتعزيزات ما بعد السلوك. فالمثيرات هى كل ما يأتى من الخارج ويستثير غرائزنا ومتطلباتنا الحياتية، بحيث يدفعنا لكى نسلك سلوكاً معينا. والتعزيزات هى كل مكافأة تأتينا من الخارج بعد أدائنا العمل المطلوب. إن محاولة تشكيل سلوك الفرد من الخارج هى عملية سوية يستعملها المجتمع من أجل التأثير فى سلوك الأفراد لكى يتوافق هذا السلوك مع ضوابط وأنظمة المجتمع. فالإنسان الحر أيضاً يحتاج إلى ضوابط معقولة يشارك فى صنعها تقلل من عملية الاصطدام بحريات الآخرين.

ولكن قوى القهر التى تعرف هدفها جيداً تستخدم المثيرات والتعزيزات الخارجية من أجل كسر إرادة الفرد تمهيداً لاختراق عالمه الداخلى. ولقد أثبتتْ التجارب أن أفضل طريقة لكسر إرادة الإنسان هى إغراقه فى الديون. والواقع هو أن قوى

القهر لا تتردد فى استعمال هذه الطريقة المضمونة النتائج. لذلك فإنها تقوم بإعادة توجيه مكتسبات المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية نحو هدف واحد هو دفع الفرد نحو الإسراف الذى يؤدى إلى الإستدانة. وهى لا تكتفى بذلك، بل إنها تحرص على إبقائه مديناً مدى الحياة حتى يقوم فى النهاية بتوريث هذه الديون إلى أبنائه.

هذا الهدف ما كان ليتحقق لولا المساعدة القيمة التى يقدمها الفرد الذى لا يدخر لكى يشترى ما يحتاجه، ولكنه يستدين لكى يشترى ما لا يحتاجه. إن التداخل بين الخير والشر جعله لا يستطيع أن يفرق بين ما ينفعه وما يضره. إن النافع هو ما يتم دفع قيمته فوراً بالعرق والكد والكفاح. وإن ما يحصل عليه الفرد بالحيلة أو بالقوة أو بالحظ أو بالأجل سيتم دفع ثمنه أضعافاً مضاعفةً يوم

الحساب. وحيث أن الحساب لا يتأخر كثيراً، فإن الفرد من أجل سداد ديونه، قد يرهن إرادته، ويبيع نفسه فى سوق العبيد، وينتقل من الحرية إلى التعثر، مُكبلاً بقيود لايستطيع الفكاك منها.

وعادةً ما تبدأ عملية استعباد الفرد وكسر إراته عندما يقبل هذا الفرد لأول مرة أن يمد يده ويحصل على شيء لايستحقه، مهما كانت التبريرات.

إن قوى القهر التى تنجح فى عملية استعباد الأفراد، تحاول أيضاً استعباد شعوب كاملة عن طريق إغراق الحكومات التى تمثلها فى الديون. وهى فى سبيل تحقيق هذا الهدف تستخدم نفس الآليات التى استخدمتها بنجاح مع الأفراد من قبل.

ثانياً
صناعة الأوثان

إن الخطوة الحاسمة التى تقوم بها قوة القهر من أجل كسر إرادة الفرد الداخلية ومصادرة حريته تحدث عندما تنجح هذه القوة فى سحب امتياز معرفة الخير والشر من الفرد ونسبه لنفسها.

إن الطبيعة قد وجَّهت الإنسان إلى أن يبحث بنفسه وبكامل حريته عن الحق والصواب، وزودته بالجهاز النفسى الثقافى الذى يستطيع القيام بتلك المهمة، وذلك بالتعاون مع إخوانه من البشر، وحسب قانون الانتخاب الثقافى، أى حسب قدرة النتائج التى يتوصل إليها من الصمود والنجاح على أرض الواقع، والتأقلم مع الظروف والمتغيرات الجديدة. وها هى قوة القهر تنجح فى فرض قانون ظالم، مفاده أن هذا العمل هو حق مقدس لها وحدها. وبالتالى فإنها بذلك تحوّل الآخرين إلى عبيد ليس عليهم واجب الطاعة فحسب، ولكن عليهم أيضاً واجب الاعتراف لها بهذا الإمتياز. وهو

أمر كما قلنا من قبل يتناقض مع الطبيعة الإنسانية، ويؤدى إلى التعثر. فتنقسم شخصية الفرد إلى قسمين: عبد مطيع فى الشعور، وشبح متمرد فى اللاشعور.

الآن لا تتردد قوة القهر فى استعمال الحرية المطلقة التى بين يديها، والتى انتزعتها أصلاً من العبيد. فتبدأ فى بسط رؤيتها وفرض قِيَمها ومبادئها وأفكارها على العبيد مغلفةً بسياج من الحماية المقدسة. وهو ما نطلق عليه اسم (صناعة الأوثان).

والعبيد فى عبادتهم لهذه الأوثان، يجب عليهم أن يشغلوا أنفسهم بالبحث عن الحكمة والعظمة والجمال داخل هذه الأوثان. كما يجب عليهم أن يكونوا مستعدين للدفاع عن هذه الأوثان متى أمر المتسلط بذلك. هذه هى الحدود الجديدة التى يمكنهم أن يستعملوا قدراتهم داخلها. والمتسلط وحده يستطيع أن يحطم هذه الأوثان إذا شاء ويأتى

بأوثان أخرى بدلاً منها، ثم يعود ويرمم الأوثان التى تحطمت ويعيدها إلى الخدمة مرةً أخرى.

إن صناعة الأوثان هى المسئولة عن كل الحروب والمظالم والمآسى التى يتعرض لها البشر. إن قوة القهر التى تعتبر صناعة الأوثان حقاً مقدساً لها، تتاجر أيضاً بهذه الأوثان لكى تحصل على أكبر ربح ممكن، حتى لو كان ذلك على حساب أرواح الملايين من البشر. فهم فى رأيها عبيد، قيمتهم تتوقف على مقدار إخلاصهم فى تنفيذ الأوامر والتوجيهات.

وتبلغ قسوة المتسلط مداها عندما يستطيع افتعال الصدام بين عبيد يقدسون صنماً معيناً، وعبيد يقدسون صنماً آخر. هنا تتضاعف الغنائم بقدر ما يتضاعف الشهداء.

إن حروب القرن العشرين كلها كانت بين عبيد يقدسون أصناماً لادينية هى القومية والاشتراكية

والرأسمالية. بينما كل حروب القرن الحادى والعشرين قد أُعدَّ لها بحيث تكون بين عبيد يقدسون أصناماً دينية أعيد ترميمها وطرحها فى الأسواق. والنتيجة واحدة فى الحالتين، وهى انتقال الأموال الطائلة من جيوب قوى القهر إلى جيوب قوى أشد قهراً برعت فى صناعة الأوثان وتجنيد العبيد.

إن الصنم له تأثير عجيب على سلوك العبيد. إن الضوء اللامع القادم من الصنم يصيب أعينهم بالعمى الكامل، فلا يرون حجم الخراب والدمار الذى يحيط بهم، ولا ينتبهون لقوة المؤامرة التى تحاك لهم، ولا يشمون رائحة المحرقة التى تعد من أجلهم. كل ما يرونه هو الضوء اللامع القادم من الصنم، فيلتفون حوله، ويلتصقون به، إلى أن يُباد فى النهاية آخر رجل منهم، ولا يتبقى إلا الصنم.

٩
مظاهر التعثر

إذا كان لدينا قناعة كافية بأننا لم نضل الطريق، وأن النتائج التى توصلنا إليها نابعة من رؤية موضوعية، وتحليل منطقى، وتحمل بذور النجاح فى الانتخاب الثقافى، فإن التحدى التالى الذى يواجهنا هو محاولة اكتشاف مظاهر التعثر، والبحث عن الآليات التى تحكم سلوك الإنسان المتعثر.

يبدو أن التعثر يمر بخمسة مراحل تشكل دورة تعثرية كاملة تتكرر باستمرار. والفرد فى هذه الدورة يلعب دور المتعثر أمام قوة قهر غاشمة. ولكنه يعود ويلعب دور المتسلط أمام متعثر أضعف منه.

وعندما تتضح لنا معالم الصورة كاملة، سوف نكتشف أننا لم نبتعد كثيراً عن التراث الثقافى الإنسانى. فالعلم والفلسفة والفن والدين قد رصد كل منهم أجزاء من الصورة بطريقة خاصة معزولة

عن باقى الإجزاء.

إن المراحل الخمسة للدورة التعثرية كما تبدوا لى يمكن تحديد معالمها كما يلى:

أولا: مرحلة الطاعة: إن قوى القهر الإنسانية تعطى نفسها حقوقاً ألوهية، وتعامل الفرد المتعثر كما لو كان عبداً محظوظاً يعيش فى الجنة إذا نال رضاها، وعبداً عاصياً مطروداً من الجنة إذا أغضبها. والعبد فى هذه المرحلة يعيش فى توازن وهمى تحت حماية خارجية مستسلماً تماماً لأقداره، لا يمتلك أية حرية، ولا يزعجه ذلك. إن الضغط الخبيث القادم من قوة الرفض الداخلية تم كبته جيداً. والمتمرد الآن يرقد فى سبات عميق.

ثانيا: مرحلة الانحراف: المتمرد الآن قد صحا من نومه، وبدأ يمارس بعض الضغوط والمطالبات. هذه المطالبات يكون حدها الأدنى هو ارتكاب

بعض المخالفات. ويكون حدها الأقصى هو إفساد كل الأمور، وتدمير التوازن الوهمى بأكمله. هنا يجد العبد نفسه قد انحرف، وعصى الأوامر، واقترب من الشجرة المحرمة.

ثالثاً: مرحلة التردد: العبد العاصى يشعر بقرب افتضاح أمره وتلقى العقاب، الذى قد يصل إلى حد الخروج من الجنة، وفقدان الحماية، وانهيار التوازن الوهمى. هنا يكون ضغط المتمرد قد وصل إلى درجة لا تحتمل.

رابعاً: مرحلة التمرد: العبد قد تم طرده من الجنة، ولم يعد لديه ما يخسره بعد أن خسر كل شىء. ولكنه الآن على الأرض يكتشف أنه ما زال حياً ومازال عاقلاً رغم كل معاناته. لقد استجاب لمتمرده، وتحرر من السيطرة، ومن الحمايه فى نفس الوقت.

خامساً: مرحلة الندم: العبد قد أخذ فرصته ثم أهدرها. حتى متمرده قد تعب ويحتاج إلى بعض النوم. لذلك فإن العبد هنا يندم، ويبحث عن العفو الذى قد يعود به إلى المربع الأول مرة أخرى.

وسوف نعود إلى شرح هذه المراحل الخمس بالتفصيل لاحقاً.

هذه التجربة تتكرر مرات ومرات. والإنسان المتعثر يصبح خبيراً بها. ويعرف لاشعورياً أن العجلة التعثرية متى تحركت، فإن لا شىء يمكن أن يوقفها. لذلك فإنه أحياناً يسرع من إيقاعها، ويسعى إلى تلقى العقاب، الذى ربما يأتى العفو من بعده. إن المتعثر مثل السجين داخل القفص، يبدو مستسلماً، ولكن ما أن يُغمض حارسه عينيه حتى يقفز من القفص، فيسقط على وجهه، وتتكسر ضلوعه، وتتورم عيناه. ثم يعود جريحاً محطماً مستعداً لتلقى العقاب مؤكداً توبته طالباً العفو

والمغفرة.

في كل حالة من الحالات الخمس تتصرف الشخصية غير الناضجة التي تقود المسيرة بأساليب معينة، يمكن رصدها بوضوح من خلال سلوكها المضطرب وعواطفها الفوضوية وتفكيرها التبريري وضميرها التسلطي. وإذا دققنا النظر جيداً، فإننا نستطيع رسم خريطة كاملة لتاريخ الفرد المتعثر، باعتبار أن هذا التاريخ ما هو إلا تكرار مستمر لهذه الحالات الخمس. بل إننا نستطيع أن نقدم تصوراً لمستقبله، باعتباره لا يعدو أن يكون مجرد أشكال جديدة من الدورة التعثرية.

يجب علينا أن نعرف الحدود التي تفصل بين التعثر وبين المرض النفسي. فالأول هو حالة عامة يشترك فيها معظم أفراد المجتمع نتيجة تعرضهم لقهر خارجي. والدورة التعثرية للفرد المتعثر

تتحرك بسرعة معقولة ثم تعود لتستقر فى المستوى الأول حيث الطاعة والانضباط رغم كل ما يصاحب ذلك من سلبيات سوف ندرسها بالتفصيل لاحقاً. أما الثانى فحالة خاصة تحدث عندما تسير الدورة التعثرية ببطء شديد، وتستقر فى مستويات الانحراف أو التردد أو التمرد أو الندم. هنا تظهر معالم السلوك المضطرب على الفرد. وغالباً ما يصاحب ذلك مشكلة عضوية غير معروفة تحتاج إلى علاج دوائى يؤدى إلى دفع الطاقة المعطلة لكى تتحرك من جديد فى اتجاه المستوى التالى.

إن قيمة هذا البحث لا تكمن فقط فى أن فهم الإنسان بهذه الطريقة يساعد على إيجاد مخرج لمعاناته ، وإعادة توجيهه نحو حياة أفضل، ولكننا قد ندرك أيضاً أن السلطة البشرية التى تحاول السيطرة على مقدرات الإنسان فى هذا الزمان تستخدم فى صمت وبنجاح عظيم الدورة التعثرية

للسيطرة على عالمه الداخلى.

إننا متى بدأنا فهم أبعاد المشكلة، سوف ندرك حجم الجريمة التى نقوم بها فى حق أولادنا. إن المشكلة التى لا نستطيع حلها تنتقل حتماً إليهم لكى يبدأوا السلسلة التعثرية من جديد، على أمل أن يأتوا بما لم نستطع نحن الإتيان به. فلا مفر إذن من الاعتراف بأننا متورطون لا محالة. وأن محاولة تغييرنا هى عملية صعبة للغاية. ولكن عملية تحرير أولادنا ممكنة، إذا بدأنا العمل على ذلك من الآن.

أولاً
مرحلة الطاعة

إن قوى القهر الإنسانية تعطى نفسها حقوقاً ألوهية، وتعامل الفرد المتعثر كما لو كان عبداً محظوظاً يعيش فى الجنة إذا نال رضاها، وعبداً عاصياً مطروداً من الجنة إذا أغضبها. والعبد فى هذه الحالة يعيش فى توازن وهمى تحت حماية خارجية مستسلماً تماماً لأقداره، لا يمتلك أية حرية، ولا يزعجه ذلك. إن كل ما يزعجه داخلياً هو الضغوط العادية القادمة من شهواته أو أطماعه. ولكن الضغط الخبيث القادم من قوة الرفض الداخلية قد تم كبته جيداً. فالمتمرد الآن يرقد فى سبات عميق.

ويندرج تحت هذه الحالة كل الدفاعات النفسية التى تهدف إلى بقاء المكبوت مكبوتاً.

الكبت

هو الدفاع الأول الذى يجعل المتمرد الرافض لكل جوانب العلاقة التسلطية يرقد فى مكان ما

بااللاشعور. ولكن مجرد تقلب المتمرد وهو نائم فى الظلام يهز التوازن الوهمى الذى يعيشه الفرد بسبب كسله وتواكله وعدم تحمله المسئولية واستسلامه لأقداره.

إن ايقاظ المكبوت وخروجه إلى النور يعرض الفرد لأخطار مادية جسيمة، بالإضافة إلى خطر انهيار التوازن الوهمى. ولكن المكبوت ما زال مؤثراً حتى وهو نائم، ولابد من وجود طريقة للتعامل معه كلما استيقظ حتى يعود إلى سباته.

الإنكار

أول ما تقوم به الشخصية المقهورة ذات الغرائز البدائية والمشاعر الفوضوية والعقل التبريرى والضمير التسلطى هو أن تقوم بعملية إنكار للواقع، وبناء أوهام قائمة على واقع نفسى افتراضى ضرورى بالنسبة لها لمعالجة مثل هذا الوضع.

العَزْل

هنا يتم عزل الفكرة العقلانية عن محتواها العاطفى. وبالتالى يسهل خداع النفس، حتى تنسى قليلاً الغرض الأساسى من الضغوط الداخلية التى تتعرض لها. هذه الضغوط يقوم بها المتمرد الذى يرفض الاستسلام لأمر واقع لا يحترم الطبيعة الإنسانية.

الخلط

إن المشاعرَ والأفكار والقيم الهدّامة تختلط بالمشاعر والأفكار والقيم البنّاءة. فالبضاعة الرخيصة تجىء مرتبطة بالبضاعة الجيدة داخل باقة واحدة، بحيث يتعين عليك أن تقبل الاثنين معاً أو ترفضهما معاً. وبذلك تتجنب كل المعاناة التى كان من الممكن أن تتعرض لها إذا ما واجهتَ نفسك بصدق.

التبرير

هو اللعنة الكبرى التى أعاقت الحضارة. فالإنسان الذى يحاول الاستسلام لأقداره وإبقاء المكبوت مكبوتاً لا يستعمل الخصائص العقلية التى وُهبتْ له، من قدرة على التفكير والفهم والتحليل والموضوعية، ويستبدلها بعقل سحرى تبريرى عاجز عن أداء دوره. العقل الذى هو أكبر نعمة لدى الانسان، والذى خُلق حراً، يبدأ عمله بشرط مسبق، هو أن عملية التفكير هذه يجب أن تصل إلى نتيجة محددة سلفاً بواسطة قوة القهر الخارجية. بمعنى أنك حر فى التفكير، ولكن بشرط أن تصل فى النهاية إلى النتيجة التى سوف أحددها لك مقدماً. مما يعنى الاستسلام تماماً لقوى التسلط القائمة، سواء الأب أو السلطة أو رجال الدين أو غيرهم. وبهذا يتجرد الإنسان مبكراً من سلاحه الرئيسى، عقلِه. ويصبح شغله الشاغل هو أن يجد لأوامر السلطة ومبادئها وآرائها تفسيراً يقنع به

نفسه قبل الآخرين.

التبرير عبارة عن أعذار وأسباب تبدو للنظرة العابرة مقنعة ومنطقية. ولكنها ليست الأسباب الحقيقية والدوافع الفعلية وراء السلوك. إنه عبارة عن منطقة سلوك الفرد ومعتقداته غير المنطقية. وتزداد خطورة التبرير عندما يشترك فيه عدد كبير من أفراد المجتمع. هؤلاء يتحولون إلى مجرد قطيع يتبادل نفس الرأى بطرق مختلفة، ويتعصب بشدة ضد أى رأى مخالف. لأنه يدرك جيداً أن هذا الرأى المخالف صادر من قطيع آخر متعصب يلعب نفس الدور. فالمتعثرون يعرف بعضهم بعضاً حتى لو انضموا إلى فرق مختلفة. والعلاقة اللاعقلانية التى تتولد فيما بينهم لها فى النهاية أسباب يمكن عقلنتها.

إن قليلاً من التدقيق يكشف أن معظم معتقدات الفرد والمجتمع ما هى فى الواقع إلا عملية تبرير يقصد بها الحصول على توازن وهمى.

ويرى المفكر اللبنانى د. مصطفى حجازى، فى كتابه (سيكلوجية الإنسان المقهور) أن العقل المبرر يتميز بالآتى:

أولاً: اضطراب منهجية التفكير.

ومن مظاهر ذلك التفكير الانفعالى والذاتى والغيبى البعيد عن الموضوعية، و العجز عن استيعاب الغموض فى أمور الحياة والطبيعة، وتعويض هذا النقص بوسائل سحرية، وسوء التنظيم الذهنى فى مواجهة الواقع، والتخبط والعشوائية، والمحاولات شبه العمياء، والانجراف فى أمور جانبية مع بقاء الموضوعات الجوهرية معلقة، والتذبذب، والبعد عن المنطق، والجهل، والتشويش، والتداخل، والتكرار، والسطحية، والجمود، والعجز عن ربط

الأمور، والتلفيق، واختلاق الأعذار، وقصور الإبداع، والتحيز، وانعدام المثابرة، والتعب، والتشتت، وسرعة فتور الحماس، وانعدام الدقة أو الانضباط فى التصدى للواقع وفى تقدير الأمور، والتهاون، والتراخى، والاستهتار، وعدم الالتزام بالواجبات والمسؤليات والتعهدات والمواعيد، والتعميم، والسير وراء القطيع، والرضوخ للمتسلط، وعدم التخطيط، والنظر للواقع بشكل جزئى زمانياً حيث يعيش اللحظة، ومكانياً حيث يظل محصوراً فى دائرة ضيقة هى حدود محيطه المباشر.

هذا القصور فى المجال الحيوى يؤدى إلى تضخيم الأمور حتى التافه منها. فتأخذ القضايا البسيطة أبعاداً مفرطة فى شدتها، تطمس الحقيقة، وتشكل للإنسان هوية ضيقة غير قادرة على التصدى للواقع. فالثانوى يحل محل الرئيسى، ويفتح المجال أمام الانفعالات والتفكير السحرى للبروز والسيطرة على الإدراك.

ثانياً : قصور التفكير الجدلى.

ومن مظاهر ذلك: التفكير الجامد أحادي الاتجاه الذى يتبع مبدأ السببية الميكانيكية. وعزل وفصل الظاهرة عن بقية الظواهر، والحكم عليها حكماً نهائياً لا يقبل التعديل. و تجاهل مبدأ أن كل شىء بما فيه الإنسان مرتبط بعلاقة أو مجموعة علاقات مع أشياء أخرى. والعجز عن الإمساك بالواقع الذى تتفاعل فيه الظواهر زمانياً ومكانياً، وتتبادل التأثير فى سلسلة من الافعال وردود الافعال. والعجز عن رؤية التناقض. والافتقار الى المرونة فى التصدى للعالم، وعدم القدرة على مواجهة المشكلات.

الإسقاط

هو آلية نفسية شائعة يَنسبُ الشخص بواسطتها أو عن طريقها للآخرين الحالة التى يعانى هو منها. إن العناصر التي يتناولها الإسقاط يدركها الشخص

مرة أخرى بوصفها موضوعات خارجية مشوهة ومنقطعة الصلة بالخبرة الذاتية الاصلية.

ويرى المفكر اللبنانى د. مصطفى حجازى، فى كتابه (سيكولوجية الإنسان المقهور) أن استخدام ميكانيزم الإسقاط يسمح للإنسان المقهور بصب انفعالاته فى الخارج على العالم والموضوعات، مما يلون العالم بصبغة انفعالية، ويجعل هذ العالم يبدو غير منطقى. هذا يؤدى إلى سرعة تدهور الحوار العقلانى، وإلى التعصب والتحيز وسرعة إطلاق الاحكام القطعية والآراء المسبقة، وسيطرة التفكير السحرى والخرافى. فيتحول الحوار إلى صراخ يفتقد القدرة على السيطرة على الواقع من خلال العقل والمنطق. لأن هذا الواقع يكتشف أصلاً أنه غير عقلانى ولامنطقى.

إن العجز عن التصدى العقلانى لمشكلات الحياة يدفع الإنسان إلى النكوص للمستوى الخرافى

والحلول الغيبية والسحرية، مما يؤدى إلى عجز عقلى أكبر، وإلى مزج الواقع بالأوهام.

الهروب

فى سبيل هروب الانسان من متمرده الذى يُذكِّرُه باستمرار بعجزه عن مواجهة مصيره، يقوم الإنسان المثبتة شخصيته على الحالة السحرية الطفولية باستخدام ألية الهروب. ويرى المفكر اللبنانى د. مصطفى حجازى، فى كتابه (سيكولوجية الإنسان المقهور) أن الهروب ينقسم إلى ثلاثة أنواع:

أولا: الهروب من الواقع

١- الرضوخ للتقاليد: يشكل الاحتماء بالتراث والتمسك بالتقاليد الاجتماعية والدينية حماية ضد القهر، وعاملاً مساعداً له فى نفس الوقت. هذا يعطى استقراراً وطمأنينةً وتوازناً زائفاً. التمسك بالتقاليد هو دفاع أولى ضد قلق تحمل المسؤلية ومواجهة

الذات. كما أنه محاولة لتبرير العجز عن طريق الاحتماء بالقطيع. في التمسك بالتقاليد استلاب عقائدى يربط ذلك بمعايير الشرف والكبرياء. يوجد فى المجتمع المتخلف تعبئة نفسية ضد كل من يخرج عن التقاليد. إن الفضيحة تلاحقه. ويُستباح فى رزقه وسمعته وحياته. ويتحالف الكل للنيل منه.

٢- الاحتماء بالماضى: الانسان يحتمى بالماضى ويجد فيه عزاءه إذا أوصدتْ أمامه أبواب المستقبل. إنه هروب خيالى لا يغير من الواقع شيئاً. إن النكوص للماضى يتناسب مع شدة آلام الحاضر. وإن تزيين الماضى يطمس عثراته ويبالغ فى حسناته. وإن التمسك بأمجاد الماضى يعطى الحد الأدنى من التوازن على أمل استعادة تلك الأمجاد. والإنسان المقهور يتمسك بالتراث

دون مراعاة لحركة التاريخ، فيخسر الحاضر دون أن يربح الماضى.

٣- الذوبان فى الجماعة: كلما شعر الكائن الحى بالقوة يميل إلى الفردية والاستقلال. وكلما شعر بالتهديد يميل إلى الاحتماء بالجماعة. يُقَسِّم المحتمى بالقطيع العالم إلى قسمين: قسم خارج القطيع هو مصدر التهديد، وقسم داخل القطيع هو مصدر الشعور بالأمان . هنا يفقد المرء استقلاله وهويته الذاتية.

٤- الوضعية الاتكالية: يعانى المقهور من الإحباط العاطفى والجنسى، وانتشار العلاقات التعويضية، وإحباط التعبير عن الذات، لأن القهر يخنق الحريات ويكبح التعبير اللفظى والحركى والسلوكى. كما أن المقهور يعانى أيضاً من الإحباط الوجودى العام، الذى يتمثل فى انعدام

الاهتمامات، وانحسار إمكانيات تنمية الشخصية وإثراء الحياة. وهذا كله يؤدى إلى النكوص ذو الطابع الطفلى، وتنامى الشخصية الإتكالية التى تعتمد على الأسرة، ثم على الرؤساء، ثم على السلطة. وهكذا يحاصر الإنسان المتخلف بالترغيب والحب التملكى من جهة، وبالتهديد والقهر من جهة أخرى، كى يظل خاضعاً للمتسلط وممثليه، عوضاً عن أن يرتقى إلى الاستقلالية والأصالة الذاتية التى وحدها تضمن المشاركة الاجتماعية الفعالة.

ثانيا : الهروب فى الواقع

يعتمد ذلك على التماهى بالمتسلط. وهى عملية لاشعورية تقوم على التوحُّد مع المتسلط. التماهى السوى هو أصلاً من العمليات النفسية الأساسية فى بناء الهوية الذاتية. فكل إنسان يجد

أصالته ضمن سلسلة من التماهيات مع أشخاص يكونون مثلاً أعلى بالنسبة له فى كل قطاع من قطاعات الحياة. هذا التماهى يمر بمصفاة الشخصية ويتلون بلونها.

أما التماهى بالمتسلط فإنه يبدأ من أعلى الهرم، حيث يتماهى المتسلط المحلى بسيده الأجنبى الذى يتقدم عليه تكنولوجياً وحياتياً، وينتهى بتماهى أكثر الناس ضعفاً وهواناً بمن يفوقهم فى المرتبة. ويشمل التماهى أحكام المتسلط وبطشه وعدوانه، ثم أسلوب حياته وقِيَمه ومثله العليا. فالمقهور يحط من قِيَمه ويُعلى من قيم المتسلط، مما يزيد من مشاعر الذنب والدونية لديه، ويجعل التسلط أمراً طبيعياً، فيتنكر لذاته، ويتخذ موقفاً معادياً لجماعته. إنه لا يحترم رفاقه، ولا يعتز بالروابط بينه وبينهم، ويجمع الأدلة على ضعفهم وعجزهم وانحطاطهم.

وقد يصل الأمر إلى حد التماهى بعدوان المتسلط، فيتحول المقهور إلى بلطجى، يمارس أشد أنواع البطش ضد المستضعفين الذين كان واحداً منهم يوماً ما. فيُجمّد عواطفه، ويتبنى أسلوب المتسلط، ويعتبر ذلك مصدر عزة وفخر، فيزدرى الأضعف، ويُرهب جانب من يفوقه قوة. وقد يتحول إلى عضو فى الأجهزة القمعية سواء فى الإدارة أو فى الأمن، فيحتقر المواطن ولا يخشى إلا رئيسه. ثم يأخذ الأمر شكل سلسلة استعلائية استعبادية، وتنتشر حلقات الرضوخ والتسلط فى كل جوانب المجتمع، ويبرز باستمرار متسلطون جدد ينشطون قدر حاجتهم للتعويض عن دونيتهم المزمنة.

ثالثا: الهروب إلى وهم

يتناسب انتشار الخرافة والتفكير السحرى مع شدة القهر والحرمان وتضخم الإحساس بالعجز. وكلما ضاقت أمام الإنسان فرص الخلاص، إندفع إلى

التماس النتائج من غير أسبابها، واستبدل السببية المادية بالسببية الغيبية. هذه السيطرة الخرافية تبعث الإطمئنان الوهمى فى نفس المقهور، وتتحول إلى تجارة فى يد مدعى العلم والمشعوذين الذين يتحالفون مع التجار ورجال السلطة. فتتأصل تلك السيطرة فى نفسية الإنسان المقهور، وتبلغ مرتبة الإيمان الذى لا يتزعزع، والعقيدة التى لا تُمس.

ترتكز هذه السيطرة على أسس نفسية نكوصية. ويتقهقر الإنسان من مرحلة العقلانية التى تميز حياة الراشدين إلى مرحلة التفكير الطفلى الذى يمزج الواقع بالخيال، والحقائق بالرغبات، والصعاب الحقيقية بالمخاوف الذاتية، ويستبدل الاتكال الطفلى على الوالدين بالاتكال الدينى، بهدف الاحتماء برموز القوة من الأخطار التى تهدد الوجود المتخلف، وذلك مثل الطفل الذى يعيش رغباته كواقع.

والجبروت الطفلى سواء الذى يسقط على الخارج أو الذى يميز الأفكار والرغبات الذاتية لا يعرف حدود المنطق أو الزمان أو المكان. وهو ما يعطى الممارسات الخرافية طابع القوة المطلقة، ويعزز من سطوتها، طالما تستمد طاقتها النفسية من تلك المنابع الطفلية.

ومن أهم ملامح التفكير السحرى التعلق برموز الخير عن طريق الأدعية والنذور والقرابين. وتجنب رموز الشر عن طريق السحر والتعاويذ. إن جبروت الرجاء يحل محل قوة الفعل التغييرى، وروحية الاستجداء تحل محل المطالبة بالحق.

واللاوعى يضع الانسان أمام مسئولياته باستمرار، ويثقل كاهله بهذه المسئولية. والإنسان يتهرب من مواجهة ذاته، بإسقاط الأمر كله على إرادة خارجية. إن القبول بالأمر الواقع هو دفاع يساعد المرء على تحمل مصيره بالحد الأدنى من الصراع

النفسى. ولكنه يحُول دون قيام الإنسان بتغيير هذا المصير كحلٍ وحيد فعال فى نهاية الامر.

وفى كتابه (مستقبل وهم) يقول سيجموند فرويد: "هناك أسئلة كثيرة لا يزال العلم عاجزاً عن أن يجد لها إجابة. لكن العلم سوف يظل هو الطريق الوحيد الذى يمكن أن يؤدى إلى إجابة. وإنه لمن التوهم أن نتوقع أن أى شىء آخر يمكنه أن يفعل ذلك."

أما ريتشارد دوكينز فإنه يهاجم التعصب الدينى بشدة. وفى ص٣٢٠ من كتابه (الجين الأنانى) يقول: "ميمة الإيمان الأعمى تكتسب خلودها من استحالة التفسير العقلانى. لذلك فإنها تسلك طرقاً قاسية فى الانتشار. كما أنها قادرة على تبرير أى فعل. ولا يختلف فى ذلك الإيمان الدينى عن الإيمان الوطنى أو السياسى."

وفى كتابه (العلم والحقيقة) ص٢٤١، يتحدث

عن أعراض التعصب الديني باعتباره ميم قد تحول إلى فيروس معدي فيقول: "إنه اعتقاد ليس له مرجعية عقلية. يُخرّب ذاتياً أي معارضة له. يستمتع بوجود أسرار ورموز غير محلولة. يقبل بوجود سلطة معصومة. يعادي بشدة المخالفين. وينتشر وبائياً."

وفي ص ٢٥٣، يقول: "أما الأفكار العلمية فإنها ليست فيروسات. إنها ميمات معرضة للانتخاب الطبيعي. هي عكس التراث العقائدي لا تُحبّذ السلوك الذي يخدم ذاته. هي تُحبّذ قابلية الاختبار، والدعم بالبراهين، والدقة، والتماسك، والموضوعية، وقابلية التكرار، والشمولية، واستقلالية الوسط الثقافي."

ويقول إريك فروم في كتابه (الدين والتحليل النفسي) ص٣١: "في حضارتنا لا يخرج التدين التقليدي بل والفلسفة أيضاً عن كونهم طبقة

رقيقة من الطلاء وضعت فوق أديان أشد إمعاناً فى البدائية."

وفى ص٣١ يقول: "إن عبادة السلف أو الصنم هى واحدة من أكثر العبادات انتشاراً فى مجتمعنا. ولاتتغير صورتها إذا أسميناها كما يسميها علم النفس (تثبيتاً عصابياً) على الطفولة."

وفى ص٣٣ يقول: "إن الذى يجعل من مصلحة الحزب أو الدولة أو الجماعة موضوعاً مقدساً هو فى الواقع يعتنق ديناً قبلياً، وإن اعتقد أنه يعتنق مذهباً عقلياً لا غبارعليه."

وفى ص١٠٦ يقول: "نحن نتصور أنفسنا أبعد ما نكون عن الوثنية. وننسى أن جوهر الوثنية ليس فى عبادة هذا الصنم أو ذاك، ولكنه فى تأليه الأشياء والخضوع لها. وذلك فى مقابل موقف يُكرّس فيه الإنسان نفسه لتحقيق أسمى مبادئ

الحياة كالحب والعقل. ليست التماثيل وحدها أصناماً. بل الكلمات، والآلات، والدولة، والزعماء، والسلطان."

ولكن الإنسان المتعثر الذى يعانى من التثبيت الطفولى سرعان ما يُحوّل إيمانه إلى دين وثنى، يقدس السلف، ويلغى العقل لحساب الخضوع للكهنة وتجار الدين. والعقل المبرر يعالج الأمر بوقاحة شديدة، ويحمى معالجاته غير المنطقية بحائط من العدوانية والتسلط. وهذا هو شأن العقل غير العاقل، يدعوك إلى الخير بينما الشر يتناثر منه، ويدعوك إلى التفكر بينما الغباء يطل من عينيه، ويدعوك إلى المنطق بينما السحر هو مذهبه.

إن عبادة اللّه يفترض أن تحمى الإنسان من عبادة السلطة. ولكن المتعثر الذى يدعى التوحيد، يعبد اللّه، ويعبد السلف ويعبد رجال السلطة ورجال المال

فى نفس الوقت، وبنفس الطريقة اللاعقلانية الحمقاء.

المتعثر من خلال هروبه إلى التجربة الدينية يكرر نفس تجربته التسلطية الفاشلة مع آبائه، ومع أبنائه، ومع السلطة، ومع رفيق حياته، ويتبادل لعبة القهر مع الجميع. فالإنسان المتعثر المتدين هو نفسه الإنسان المتعثر العلمانى. إنه يأخذ الأمر بتعصب ولا عقلانية، ويصبح أداة طيعة فى يد من يستخدمه من أجل تحقيق أهداف عكس أهدافه تماماً.

ثانياً
مرحلة الانحراف

المتمرد الآن قد صحا من نومه وبدأ يمارس بعض الضغوط والمطالبات. هذه المطالبات يكون حدها الأدنى هو ارتكاب بعض المخالفات، ويكون حدها الأقصى هو إفساد كل الأمور، وتدمير التوازن الوهمى بأكمله. والعبد لا يجد بداً من تقديم بعض القرابين سراً لمتمرده لعله يهدأ قليلاً. هنا يجد العبد نفسه قد انحرف، وعصى الأوامر، واقترب من الشجرة المحرمة.

الإنسان الذى لم يتعود على استعمال حريته، ما أن يجد الفرصة لاستعمالها حتى يستعملها استعمالاً أحمق. إنه يسرق ما كان من حقه اصلاً. فطبيعته الإنسانية تؤكد أنه قد خلق لكى يكون حراً. ولكنه بعد أن تخلى عن أعز ما يملك، وصارت معرفة الخير والشر حكراً على السيد الذى يعطى نفسه حقوقاً ألوهية، ثم سنحت الفرصة للعبد فى الخفاء أن يسرق جزءاً من حريته المسلوبة، فإنه

يستعملها فى المعصية.

إن كل ما كان يحلم به هو أن يشارك بحرية فى وضع الضوابط التى يعمل من خلالها. الآن أصبحت الحرية بالنسبة له تعنى المعصية، والمخالفة، والخطيئة، والعمل فى الخفاء، والتظاهر بعكس ما ينتوى. وهكذا يؤدى القهر إلى الانحراف. أما الحرية الأصيلة فإنها ترتبط بالوعى والمسئولية التى تعرف كيف تقاوم الانحراف. ولا شك أن هذا الاستنتاج قد يسبب صدمة للكثيرين ممن تعودوا على الربط بين الحرية والانحراف.

طبقاً للثقافة السائدة فى المجتمع فإن كل شىء يبدوا عادياً حتى الآن. ولكن عندما تستقر الطاقة النفسية وقتاً طويلاً فى هذا المستوى، يظهر ذلك بوضوح على سلوك الفرد، وتبدأ الحالة التى رصدها علم النفس وأطلق عليها إسم (الشخصية السيكوباتية)، ووجد فيها الأوصاف الاتية: عدم

القدرة على التوافق مع ضوابط وأنظمة المجتمع، والخروج على قِيَمه ومعاييره ومُثُله العليا وقواعده وأخلاقه، وعدم التخطيط المستقبلي، والعنف، والخداع، وانعدام المسؤلية، أو التعلم من الخبرات السابقة، أو الندم على الأخطاء.

إن السيكوباتي مضطرب السلوك منذ صغره، وليس ذلك فكراً طارئا عليه. وهو أستاذ في الكذب، وممثل بارع، وفنان في اختلاق المبررات التي يغطي بها أفعاله، بحيث يبدو أمام السذج من الناس إنساناً فاضلاً. كما أنه يتميز بالجاذبية المصطنعة، وعدم الثبات، وعدم الصدق، وعدم الإخلاص، وغياب الضمير أو الخجل.

والسيكوباتى مشعل للحرائق دون تعليلات منطقية، يحب اختلاق الفوضى والمشكلات، ولا يهدأ في حال ما إذا كانت الأمور مستقرة، إذ يشعر بأن هذا الوضع خاطئ وغير طبيعي. وهو من أخطر

الشخصيات على المجتمع وعلى الناس، ولا يهمه إلا نفسه، فيعطي وعوداً كثيرة، دون أن يفي بأي شيء منها.

قد ينتهي به الأمر إلى السجن، وقد يصل أحياناً إلى أدوار قيادية في المجتمع، نظراً لخبثه وأنانيته المفرطة وطموحه المحطم لكل القيم والعقبات والتقاليد. يستطيع أن يناور ويتحايل على القوانين، ويستطيع استخدام صداقاته من أجل الوصول إلى ما يريد.

عند مقابلته ربما تنبهر بلطفه وقدرته على استيعاب من أمامه، وبمرونته في التعامل وشهامته الظاهرية ووعوده البراقة. ولكن حين تتعامل معه لفترة كافية، تجد حياته شديدة الاضطراب، ومليئة بتجارب الفشل والتخبط والأفعال غير الأخلاقية.

إن العدوانية والسيطرة دائما ما يكونا متلازمين عند السيكوباتى. كما أن له مقدرة ضعيفة على الحكم. وهو عاجز عن التعلم من الخبرة، متمركز حول الذات، وعاجز عن الحب، وضعيف في معظم الاستجابات الوجدانية الرئيسية، وفقير فى الاستبصار، وغير قادر على التحمل، وفاشل في اتّباع أي خطة لحياته. إنه يواجه الإحباط بالاندفاع والعدوان دون حساب النتائج. كما أن الحياة الجنسية له غير تقليدية، وغير منضبطة، و غير قابلة للتحكم.

بالإضافة إلى ذلك فإن السيكوباتى يجيد التعبير اللفظي عن الانفعال الملائم لموقف معين، لكن ذلك لايكون انفعالاً حقيقياً. إنه يعبر عما لايشعر به، كما إنه يستخدم كل التعبيرات الممكنة للاعتذار عن سلوك معين، ولكن هذا الاعتذار لايكون إلا تمهيداً لانحراف جديد.

إنه كذاب، مخادع، محتال، نَصّاب، عذب الكلام، لا يحترم القوانين أو الأعراف أو التقاليد، و ليس لديه ولاء لأحد إلا ولائه لشهواته. إنه يُسخّر الجميع للاستفادة منهم و استغلالهم و أحياناً ابتزازهم. إنه لا يتعلم من أخطائه، و لا يشعر بالذنب تجاه أحد، ويشعر بالذنب فقط حيال اكتشاف أمره. وهو لا يعترف بخطاياه أبداً إلا فى الجزء الذى افتضح بصورة لا تقبل الشك. إنه لا يعرف الحب، ولكنه بارع في الإيقاع بضحاياه، حيث يوهمهم بحبه لهم ويغريهم بالوعود البراقة والأحلام الزائفة.

ثالثاً
مرحلة التردد

العبد الذى سرق حريته واستعملها بطريقة حمقاء يتعرى أمام نفسه، وتنكشف له نقاط ضعفه، ويدرك صعوبة المهمة، ويشعر بالخزى والفشل والإحباط الذى يتحوّل إلى ترددٍ وخوفٍ شديد. فقد عصى الأوامر واقترب موعد افتضاح أمره وتلقى العقاب الذى قد يصل إلى حد الخروج من الجنة، وفقدان الحماية، وانهيار التوازن الوهمى.

إن طبيعة العلاقة بين السيد الذى يعطى نفسه حقوقاً ألوهية والعبد المغلوب على أمره، والقائمة على السيطرة من الأول والطاعة من الثانى، ثم التساهل من الأول والخطيئة من الثانى، قد أصبحتْ الآن مرفوضة تماماً، ولا يمكن استمرارها. ربما حدث ذلك بسبب ظروف ضعف أحد الطرفين أو كلاهما. هنا المتمرد يضغط بقوة طالباً إفساد هذه العلاقة. وعندما يكون ضغط المتمرد قد وصل إلى درجة لا تُحتمل، تظهر على العبد كل أعراض

القلق والشك والأوجاع مجهولة المصدر. هذه الأعراض فى ضوء دراستنا هى جزء معزول من ظاهرة عامة يمر بها الإنسان المتعثر قد تطفو إلى واجهة الأحداث فى ظروف معينة، وقد تظهر وتختفى فى هدوء دون أن يلتفت إليها أحد.

ولكن عندما يستقر العبد فى هذا المستوى وقتاً أطول مما يجب، ويعجز عن الخروج من هذه الحالة شديدة الإيلام، ويحتاج إلى مساعدة خارجية، فإن علم النفس يبدأ فى تصنيف هذه الحالة تحت إسم (العصاب). وعادة ما يرتبط ذلك بأسباب عضوية.

إن القلق العصابى هو خوف من المجهول ومن المستقبل ومن أشياء غير مفهومة. وإن توهم المرض يعتبر بديلاً عن المعاناة التى لا يستطيع المتعثر التعبير عنها، ونوعاً من إسقاط المشكلة على الخارج. وكأن الجسد كيان قائم بذاته خارج

نفسه. إنه قد يجد للخوف أى تفسير إلا الحقيقة، وهى أنه قد عصى أوامر سيده. وفى نفس الوقت عندما يلعب المتعثر دور السيد مع ضحية جديدة، فإنه يعيش حالة الشك العصابى، وهو شك لا عقلانى غير معلوم المصدر يتجه نحو كل شىء.

يقول فرويد فى كتابه (النظرية العامة للامراض العصابية) ص٤٦: "العصاب هو عجز المرء عن الاستجابة بكيفية سوية لحدث نفسى ذى طابع وجدانى جارف."

وفى ص٦٧ من نفس الكتاب يقول: "وجود العرض العصابى مشروط بوجود سيرورة نفسية تعذر عليها الوصول إلى نهايتها الطبيعية، ومن ثم يأتى هذا العرض لينوب مناب ما لم يكتمل."

وفى ص١٦٠ يقول: "التخيلات لها واقعها النفسى الذى يتعارض مع الواقع المادى. فالواقع النفسى هو الذى يلعب فى الأعصبة الدور الفاصل."

وفى كتابه (علم نفس الجماهير)، ص٣٧ يقول: "لقد رأينا الدور الذى تلعبه غلبة الحياة الخيالية والأوهام المسنودة بالرغبات غير المحققة فى تحتيم نشوء الامراض العصابية. وقد وجدنا أن الواقع الوحيد الذى له قيمة لدى العصابى هو الواقع النفسى، لا الواقع الموضوعى، واقع الناس جميعاً. فالعرض العصابى يقوم على عنصر خيالى، بدلاً من أن يحاكى حدساً واقعياً."

وقد تعرض فرويد في كتابه (القلق) إلى المقارنة بين القلق الموضوعى والقلق العصابى، ومحاولة فهم العلاقة بينهما. وقد استطاع أن يجد هذه العلاقة في اعتبار أن كل منهما هو عبارة عن رد فعل لحالة الخطر. فالقلق الموضوعى هو رد فعل لخطر خارجي معروف. أما القلق العصابي فهو رد فعل لخطر داخلى غير معروف. لهذا يقول فرويد: "إن التقدم الذي أحرزناه هو أننا تجاوزنا حالات القلق

إلى حالات الخطر التي تكمن وراءها. فالقلق الموضوعى هو قلق حول خطر معروف. أما القلق العصابى فهو قلق حول خطر غير معروف، و يجب أن يُعَرَّف."

والعصابيون في رأي فرويد هم الأشخاص الذين لا يزالون يستجيبون لحالات الخطر القديمة كأنها ما زالت قائمة بالفعل. ولذلك يقول فرويد: "إن كثيراً جداً من الناس يظلون أطفالاً في سلوكهم إزاء الخطر. وإن هؤلاء لم يتغلبوا بعد على العوامل القديمة المسببة للقلق. وإن إنكار ذلك يعنى إنكار وجود العصاب. لأن مثل هؤلاء الأشخاص بالضبط هم الذين نسميهم عصابيين."

رابعاً
مرحلة التمرد

العبد قد تم طرده من الجنة، ولم يعد لديه ما يخسره بعد أن خسر كل شيء. ولكنه الآن على الأرض يكتشف أنه ما زال حياً ومازال عاقلاً رغم كل المعاناة، إن المتمرد قد خرج من مرقده. والعبد فى استجابته له قد تحرر من السيطرة ومن الحمايه فى نفس الوقت. ولكنه لايعرف كيف يستعمل تلك الحرية، فيبالغ فى التحدى والفساد، ويستمتع بارتكاب كل المخالفات، ويعانى من كل النتائج والعقوبات المترتبة عليها. حالة خروج المتمرد هذه ربما تقابل ما رصده علم النفس الفرويدى عن حالة (عودة المكبوت).

اللاشعور المتمرد على قوى التسلط قد خرج إلى النور، وصار فى أوج قوته، يسيطر على الموقف بهدف قتل العبد وقوى التسلط معاً. هنا العبد لا يمانع من تدمير نفسه ما دام ذلك قد يدمر سيده سبب المشكلة. هذا السيد قد يكون الأب أو

الحاكم أو المدير أو الرفيق أو غيرهم. إن عودة المتمرد المكبوت وخروجه من مدفنه يؤدى إلى انهيار التوازن الوهمى. والأسباب المباشرة وراء ذلك قد تتراوح ما بين قهر إضافى أو نصر غير مستحق. يحدث ذلك نتيجةً لزيادة قوى القهر أو ضعفها، أو بسبب الملل والإرهاق من كثرة الصراعات، أو لعدم القدرة على الاستمرار والحاجة إلى تغيير الأوضاع مهما كان الثمن حتى لو أدى ذلك إلى الثورة أو القتل أو الانتحار أو الجنون، وقد يحدث ذلك أيضاً نتيجةً لانكشاف الخطيئة وضرورة المواجهة.

ولكن السبب الرئيسى الذى يوجد دائماً خلف الستار هو أن الدورة التعثرية يجب أن تكتمل، بحيث يتم الوصول إلى شروط أفضل للتعايش، أو فى أسوأ الأحوال يتم تدمير كل العلاقات، وتغيير كل الأبطال. فالعبد ربما يبحث عن سيد أفضل وأقل تسلطاً، ولكنه لا يحلم على الإطلاق بالوصول إلى

نوع من الاستقلالية والنضج وإقامة علاقات متوازنة خالية من كل مظاهر الخضوع والتسلط. إن فكرة البحث عن الحرية تختفى، وتفسح الطريق لفكرة أخرى كى تحل محلها، هى فكرة البحث عن المتسلط العادل.

ولكن المتعثر يجب أن يدفع ثمن تمرده قبل أن يخرج من هذه المرحلة. إن الحاجة اللاشعورية إلى عقاب النفس ما هى فى الواقع إلا حاجة إلى الصفح والغفران. إنها الضريبة التى يجب دفعها من أجل دخول المرحلة الخامسة. إن إهمال الفرد لواجباته، أو تبديده لأمواله، أو ارتكابه ما يضر بسمعته، أو تقبله للإهانة، أو ارتكابه لجريمة، كل ذلك قد يكون طلباً للعقاب. إن معظم المغامرين يلعبون بدافع الخسارة لا بدافع الربح. وكأن الفرد يرتب للأمور ترتيباً لاشعورياً بحيث يتعرض للضرر والمتاعب. فهو لا يجد اللذة إلا بعد الألم، والسعادة

إلا بعد الشقاء. وحتى إذا ما دارت الدوائر مرة أخرى فإنه يعود إلى تكرار نفس الأخطاء.

ويصف لنا المفكر اللبنانى: د مصطفى حجازى، فى كتابه (سيكولوجية الانسان المقهور) حالة التمرد التى يقوم بها العبيد أثناء قيام المتسلط بأعمال القمع وتوقيع العقوبة عليهم، بأنهم يقومون بكل أعمال العنف والعدوان والبطش والتعالى والفوضى. وبعد أن كان العبد يرمى بالذنب على زميله المقهور مثله، أصبح يتحدى المتسلط نفسه.

وتتميز تلك المرحلة بالاتى:

١- العدوانية على الذات: الكفر بالذات والنكاية بها وإدانتها واحتقارها - الاعتراف بالخطيئة والطمع فى الغفران – السوداوية التى تظهر فى الفن والأدب والمناسبات الاجتماعية – إنفصام الذات إلى جزئين: واحد مذنب، والثانى ينتظر

الخلاص – الانتحار.

٢- العدوانية الموجَّهة إلى الخارج: الحرب الخفية على المتسلط وعلى رموزه – الكسل فى العمل – التقلب بين العمل والبطالة – الفساد – التخريب – النكات الخارجة والبذاءة والتصريف اللفظى للعدوانية – الخداع والاحتيال – الشطارة والفهلوة – السلوك الجانح وخرق القانون - الجرائم والانحرافات – التوتر الوجودى – غياب المنطق وسيطرة الانفعالات على الحوار - إنعدام التفاهم والسباب والتهديد والاشتباك – توجيه العدوانية إلى جماعات خارجية من خلال التعصب العرقى والطائفى والدينى.

ويقول جوستاف لوبون فى كتابه (سيكلوجية الجماهير) "إن الجماهير غير واعية، تسير فى اتجاه

واحد، مغفلة، عنيفة، لا تميز، زعيمها معصوم، تسير وراء منومها فى اتجاه عاطفة دينية وثنية حتى لو بدت غير ذلك. هذه العاطفة سواء أسقطت على معبود لا يُرى، أو على صنم، أو على بطل مؤله، أو على فكرة سياسية، فإنها تبقى ذات طابع دينى. فى هذه الحالة يضع الإنسان كل طاقته وإرادته وتعصبه لخدمة قضية معينة، أو شخص مرفوع إلى مستوى البطولة. هذا هو ما يفسر تعصب الجماهير، واستبدادها، واعتناقها للأفكار والعقائد على أنها حقائق مطلقة. فالعقائد تتشكل عند الجماهير عن طريق الإيحاء والعدوى والتنويم. إن عواطف الجماهير مضخمة ومجردة وبدائية. والفرد فى هذه الحالة يفتقد المسؤلية الفردية، ويتعرض للعدوى العقلية، ويفقد إرادته، ويستعيد الحياة النفسية للبدائيين والأطفال، ويصبح سريع التأثر، وسريع التصديق، ومتطرف، وغير منطقى، وغريزى، وبدائى، وواهم، تسحره الكلمات، ولا تهمه

الحقيقة."

إن كل المنتجات الثقافية للحضارة على مر التاريخ من فلسفة وفن ودين تستمد وجودها أصلاً من ثورتها على قوى التسلط والقهر الموجودة فى المجتمع. ولكن قوى التسلط بعد هزيمتها فى الجولة الأولى تسترد قوتها وتستوعب هذه الأفكار الجديدة وتعيد استخدامها من أجل المزيد من التسلط. ويساعد على ذلك استعداد العبيد أنفسهم للرجوع إلى الوضع الذى تعودوا عليه، مما يجعل قوى التسلط تجمعهم لكى يتراصوا فى الصفوف الأمامية مشكلين حائط صد يقوم بحمايتها.

خامساً
مرحلة الندم

العبد قد أخذ فرصته ثم أهدرها. حتى متمرده قد تعب ويحتاج إلى بعض النوم. لذلك فإن العبد هنا يندم ويبحث عن العفو الذى قد يعود به إلى المربع الأول مرة أخرى. والعبد فى إحساسه بالذنب وانتظاره للعفو، لا يعرف إن كان ذلك العفو سوف يأتى أم لا يأتى. لذلك فإنه فى انتظاره الطويل يعيش تلك الأعراض التى يسميها علم النفس الفرويدى (إكتئاب).

ما دامت معركة التمرد والعقاب لم تؤدِ إلى قطيعة نهائية بين العبد وسيده، بحيث يجد العبد سيداً آخر يبدأ معه الدورة التعثرية من جديد ، فإنه سوف يكون منهك القوى وعلى استعداد لبدء صفحة جديدة. فى هذه الحالة يكون المتمرد أيضا قد اكتفى بما حققه من إنجازات.

قد يفسر الاكتئاب طبقاً لأسباب طبية أو اجتماعية أو نفسية، ولكنه لم يفسر ابداً فى ضوء

نظرة شاملة للإنسان، ترى الاكتئاب نهاية رحلة طويلة شاقه داخل علاقة معقدة ومتشابكة بين العبد وسيده، أو بين الفرد المتعثر وقوى التسلط. هذه النهاية يعيشها الفرد لا شعورياً على أنها موت فعلى. ولكن بعد الموت لابد أن يكون هناك حياة أخرى، أى فرصة أخرى، فيُبعث من جديد، ويعود إلى المربع الأول.

علماء النفس وضعوا عدة تعريفات مختلفة للاكتئاب أذكر منها على سبيل المثال :

- الإكتئاب مرض نفسي يتميز بتغير عميق في الحالة المزاجية بين حزن وألم وتباطؤ نفسي حركي.
- إنه ذلك الاضطراب الذى تصاحبه انحرافات مزاجية تفوق جميع التقلبات المزاجية الأخرى.

- إضطراب الاكتئاب ما هو إلا استجابة لا تكيفية مبالغ فيها. وهى تتم بوصفها نتيجة منطقية لمجموعة التصورات أو الإدراكات السلبية للذات، أو للموقف الخارجي، أو للمستقبل، أو للعناصر الثلاثة مجتمعة.

- الإكتئاب هو حالة من القنوط واليأس وانقطاع الأمل والخوف يصاحبها اتجاهات سلبية وتغيرات في محيط الدافعية، أى في القوى المحركة للإنسان.

- إضطراب الاكتئاب هو مرض نفسي يتصف بشعور عميق ودائم بالحزن أو اليأس أو فقدان الاهتمام بالأشياء التي كانت يوماً ما مصدراً للبهجة. و يرافق ذلك اضطراب في العمليات الذهنية.

- الإكتئاب حالة انفعالية تكون فيها الفاعلية النفسية والجسدية منخفضة وغير سارة.

هذه الحالة قد تكون سوية أو مرضية. و تشير المرضية منها إلى اليأس و الشعور الساحق بالعجز و التفاهة.

- هو حالة من الحزن الشديد المستمر تنتج عن الظروف الأليمة وتعبر عن شيء مفقود. ولكن المريض لا يعي المصدر الحقيقي لحزنه.

- إنه حالة من الاضطراب النفسي تبدو أكثر وضوحاً في الجانب الانفعالي من شخصية المريض. تتميز هذه الحالة بالحزن الشديد واليأس من الحياة ووخز الضمير.

للاكتئاب مجموعة من الأعراض منها: عدم القدرة على التركيز، والشعور بعدم الأهمية، والإحساس بالذنب.

ومن أهم مظاهر الاكتئاب أن إدراك المرء للزمن يتغير، فيشعر أن يوماً يمر كأنه شهر. ويتغير أيضاً

ذلك الإحساس المتعلق بالماضي والحاضر والمستقبل. إن الماضي وليس المستقبل هو ما يسترعى انتباه الشخص المكتئب.

ومن الأعراض المهمة أيضاً للاكتئاب خلل المزاج، والفراغ، وانعدام الأمل والقيمة، وقلة الحيلة، والإحساس بالدونية، والأرق، وقلة ساعات النوم أو زيادتها، والتعب المفرط، والخمول، وفقدان الطاقة، والآلام، والأوجاع. والإحساس باليأس، وانخفاض التنبيه الجنسى، وفقدان البهجة، ولوم الذات.

أيضاً من أعراض الاكتئاب: الشعور بالوحدة، والعجز، والإعياء، والجمود، والهياج، والعدوانية، والمشاكل البدنية، والآلام العضوية، وضعف مستوى النشاط الحركي، واضطراب النوم، ونقص الدافعية، وفقدان الشهية، وسوء الهضم.

كذلك من أعراض الاكتئاب اضطراب معدل ضغط الدم، والاضطرابات الجنسية، والاضطرابات التى تمس الوظائف المعرفية العامة والتصورات والتفكير، كانخفاض التركيز والانتباه والذاكرة.

قد يعانى المكتئب أيضاً من الشعور بالنقص، وفقدان تقدير الذات، واحتقارها، والتشاؤم، والشعور الدائم بالضآلة، والعجز، والشك في القدرات، وعدم القدرة على اتخاذ القرارات، وصعوبة التعامل والتواصل مع الآخرين، وعدم التكيف في العلاقات الاجتماعية، والإحساس بالوحدة، وفقدان الحب، وفقدان الدعم والامل.

وتبقى مشاعر الذنب، واللوم المرضي النفسى، وتأنيب الذات، والحسرة، والندم، أكثر الأعراض أهمية فى دراسة الاكتئاب. فالمكتئبون يرون أنفسهم أسوأ الأفراد على الإطلاق، يستحقون ما يحدث لهم.

والاكتئاب له درجات من بسيط إلى متوسط إلى شديد. وقد لاحظ فرويد أن الاكتئاب ينتج من فقدان لاشعوري لموضوع وهمى، بينما يكون الحزن العادي هو عبارة عن فقدان شعورى لموضوع حقيقى.

خضعت دراسة الاكتئاب لتطور كبير فى هذا الزمن الذى يختلط فيه علم النفس بالبيولوجيا. ويرى روبرت إم سابولسكى أن الاكتئاب هو فقدان السيطرة على أحد الضغوط النفسية، وتضخم هذه الخبرة، والوصول إلى إحساس مشوّه بالعجز الكلى. ولكن هؤلاء الذين يكونون عرضة بيولوجياً لخطر الإصابة بالاكتئاب هم الذين تكون مقاوتهم أقل. فعلى مستوى بيولوجى معين يكون الاكتئاب الكبير هو عبارة عن فشل فى إعادة التوازن.

إكتشف العلم الدوائى بعض الوسائل الفعالة لمكافحة هذا المرض. فقد تعرف على بعض

النواقل العصبية فى المخ التى تعانى خللاً عند الإصابة بالاكتئاب. وبالتالى فإن التحكم فى مستوى هرمون السيروتونين المستخدم كناقل يؤدى إلى تحسن كبير فى الاعراض. وكان هذا هو الأساس فى إنتاج أدوية مضادة للاكتئاب.

أما البديل الذى سوف يقود العلاج فى المستقبل، فهو الاكتشافات الحديثة ذات الصلة بالاختلافات الوراثية وطرق تأثيرها على المخ. فقد كان المحفز الرئيسى لهذه الاكتشافات هو تطور طرق الفحص المباشر للصور الجينية المختلفة الناشئة عن التغيرات العشوائية فى بنية (دى إن إيه)، والتى تساهم فى الصفات البشرية. وبدلاً من الحديث عن أهمية الطبيعة والتنشئة، يتجه البحث نحو أهمية الأشكال المختلفة من الجينات التى تساهم فى تكوين استعداد الفرد للمرض . وسوف يساعد على ذلك تطور تكنولوجيا جمع وتقييم كميات

كبيرة من بيانات (دى إن ايه).

وبالعودة إلى موضوعنا، نلاحظ أن الاكتئاب هو أسوأ حالة يمكن أن تصيب إنسان عاقل. وهو عبارة عن المرحلة الأخيرة من مراحل الدورة التعثرية، حيث يندم العبد على ما فات، ويعانى من آلام انتظار العفو، ويعيش هذا الانتظار على أنه موت فعلى سوف يبعث بعده من جديد.

إن خبرات العبد فى تلك المرحلة هى ما تجعله يبطئ أو يسرع من إيقاع دوران الطاقة خلال المراحل الأخرى. فإذا كانت خبراته السابقة مع الاكتئاب شديدة الإيلام، فإنه سوف يتمسك بقوة بالبقاء فى مرحلة الطاعة أو الإنحراف لا يتزحزح عنها. ويؤثر ذلك على كل سلوكه ومعتقداته وأفكاره ومشاعره. وإذا كانت خبراته السابقة مع الاكتئاب محتملة، فإنه عادةً ما يُسَرع من إيقاع الدورة التعثرية، حتى يدخل إلى الاكتئاب ويخرج

منه سريعاً. لهذا تجده يُعَقد الأمور، ويشعل الحرائق، حتى يعبر مرحلة التمرد والعقاب سريعاً إلى مرحلة الاكتئاب، التى يأتى العفو بعدها.

إذا كانت الدورة التعثرية هى المحرك الأول لكل سلوك الإنسان المتعثر، فإن خبرة المرء مع الاكتئاب هى المتحكم الأول فى سرعة دوران العجلة. ولحسن الحظ يأتى العفو أخيراً قبل أن يجن العبد أو يموت. وتتم العودة بسلام إلى المربع الأول. إن الخروج من المتاعب والعودة إلى الجنة هو سقف الأحلام بالنسبة للمتعثر. وهى عودة مبنية على نتائج الخبرات التى أفرزتها المعركة السابقة. لقد جاء العفو، وسيكون هناك إذن عقد جديد للتسلط له شروط واضحة. ومهما كانت هذه الشروط فإن شجرة المعرفة سوف تظل محرمة على العبد، وسوف تحاط بسياج أكثر قوة. بينما يقف المتمرد مراقباً من بعيد، منتظراً أى مخالفة تحدث

في شروط العقد الجديد، وفي النهاية يتم كبته فيعود إلى تابوته مطمئناً.

فالعبد لم يسترد حريته ولم يحقق أي انتصار واقعي. لقد تسلم باقة من المبادىء العصابية لم يشارك في إعدادها. وهو سوف يحاول على قدر المستطاع طاعتها حتى لو بدت غير منطقية. بل إنها من الأفضل أن تكون غير منطقية حتى تتناسب مع عقله غير المنطقي.

ولكن هذا التوازن الأخير القائم على علاقة قهر أصلاً وخمسة من مراحل الصراع المرير، يختلف تماماً عن التوازن الطبيعي القائم على علاقة سوية تحمل الحد الادنى من الحرية. وهذا ما يفسر لماذا يدافع عنه أصحابه بتعصب واستماتة.

إن الرعب من العودة إلى الصراع الذي ينتهي بحالة الاكتئاب الرهيبة هو الذي يجعلهم يغلقون باب التطوير أو التعديل أو التجديد، ويضفون على

الأمر طابع الثبات والقداسة، ويضعون حُرّاساً على شجرة المعرفة. ولكن للأسف يكون هذا نفسه هو الباب الذى يدخل منه المتمرد المكبوت، لأن هذا الأمر مرة أخرى يعتبر تحدياً سافراً للطبيعة الإنسانية.

إن الطبيعة الإنسانية التى تريد هدم هذا التوازن الجديد بأية وسيلة، لا تجد صعوبة فى التسلل داخل التوازن المقدس نفسه، فتضع آلاف التساؤلات التى تستدعى آلاف التبريرات والتفسيرات، مما يزلزل الارض تحت أقدام أصحابه.

إن فكرة المتسلط العادل يستحيل تطبيقها على أرض الواقع. فالعبد سوف يظل ملوثاً منذ تلوث أول مرة. والتوازن الجديد سينهار مع أول مخالفة. والعودة للمربع الأول سوف تحدث مراتٍ ومرات. وسوف يضطر السيد لسحب الامتيازات التى أعطاها للعبد، والعودة للتسلط بشكل أكبر، بحجة أن

العبد لا يستحق أكثر من ذلك. والعبد نفسه قد يتفق معه فى هذا الرأى.

وحتى إذا انقطع الرباط بين الحاكم والمحكوم، كأن تغير الحاكم، أو حتى تغير النظام السياسى أو الأسرى أو الإجتماعى كله، فإن هذا لا يغير من النظام السيكولوجى شيئاً. وسوف يكون الأمر مجرد تغيير فى الأسماء دون أى تغيير فى الجوهر.

ولا يختلف الأمر كثيراً فى العلاقة بين الرفيق ورفيقه. فالدورة التعثرية تتوقف قليلاً، ثم تعود وتبدأ من جديد، ثم تتكرر مرات ومرات. وحتى لو تم تغيير الرفيق، فإن شروط الارتباط برفيق جديد يجب أن تتوافق مع شروط استكمال الدورة. إن الرفيق خلال بحثه عن رفيق جديد لا ينسى أن الروابط مع الرفيق القديم لم يتم قطعها بطريقة سوية. لهذا فإنه مازال يبحث عن الرفيق الذى

يشاركه علاقة تسلطية قد تكون أقل أو أكثر حدة من سابقتها.

إن نظرية الدورة التعثُّرية تستطيع تفسير كل الأمور التى لا تفسير لها فى العلاقة بين الرجل والمرأة. إن كل الأمور الخاصة بالمشاعر والمصالح التى تدخل ضمن هذه العلاقة، تسير جنباً إلى جنب مع الميراث الثقيل من القهر الذى يحمله كل طرف من الطرفين، والذى يؤثر حتماً على تلك العلاقة، ويتسبب فى كل تلك التعقيدات غير المفهومة.

إن الطرفين يتبادلان دور السيد والعبد ظاهرياً، بينما يعانى كل طرف من ضغوط لاشعورية تدعوه إلى نسف هذه العلاقة من أساسها. فالطرف الأضعف قد أسقط على الطرف الأقوى كل القهر الذى تعرض له من الأسرة والمجتمع خلال تاريخه قبل بدء العلاقة. والطرف الأقوى قد ظلم نفسه عندما قبل هذا الميراث الثقيل، لأنه يحمل أيضاً على

أكتافه ضغوطاً قهرية جبارة ورثها من الأسرة والمجتمع. بهذا يكون تاريخ كل منهما مع القهر هو المتحكم الرئيسى فى مستقبلهما المشترك. وبالتدريج تتضاءل الآمال الكبرى التى عقدها كل منهما على الآخر، وتبدأ دورة تعثرية مشتركة فيما بينهما. ويبدأ الطرف الأضعف فى إثارة المشاكل والانتقال من مرحلة الطاعة إلى الانحراف إلى التردد إلى التمرد إلى الندم. وفى نفس الوقت ينتقل الطرف الأقوى من التسلط إلى التساهل إلى الشك إلى العقاب إلى الصفح والغفران. ويتكرر ذلك ويتحول إلى روتين يمكن التنبؤ به.

وعندما يتوقف أحدهما عند نقطة معينة، ويضج بالشكوى، ويبحث عن المساعدة، فإن الأنظار تتركز دائماً حول جزئية بسيطة من المشكلة، ولا تستطيع أن ترى الصورة كاملة. فقد سيطرت الدورة التعثرية على الموقف، وصار أقصى

ما يطمح إليه الجميع هو العودة لمرحلة الطاعة بشروط أفضل. أى البحث عن الهداية العصابية والتسلط العادل. وهو الوضع الذى سوف يقف له المتمرد المكبوت فى اللاشعور داخل كل منهما بالمرصاد.

لقد تولى اللاشعور ضبط العلاقة بينهما على أسس تعثرية. وأصبح كل طرف يمثل الإعاقة الكبرى التى تقف فى طريق الطرف الآخر. ولا يفكر أحدهما على الإطلاق بأن الحل الوحيد للخروج من هذه الأزمة، هو نسف العلاقة التسلطية من أساسها مهما كانت القوة الخارجية التى تدعمها، وإقامة علاقة جديدة تتفق مع الطبيعة الإنسانية، وتقوم على مبادئ الحرية والمساواة. فى هذه الحالة فقط يستطيع كل طرف أن يقوم بإزالة الحواجز والعراقيل من أمام الطرف الآخر، ويمد له يد العون اللازم لكى يجد نفسه ويحقق ذاته.

إن القوة النفسية التى تدفع الأمور فى اتجاه تكرار الدورة التعثرية من الصعب مقاومتها. فهى التى تجعلك ترتبط، وتنفصل، وتنحرف، وتتمرد، وتطيع، وتضل، وتهتدى، وتقلق، وتكتئب، وترتكب جريمة، وتنتحر، وتسافر إلى أقصى بقاع الارض، وتعود حاملاً سرك معك. إنه المتمرد المكبوت أو الطبيعة البشرية التى ترفض الوضع الذى يقوم على أسس تسلطية منذ اليوم الاول.

نعم إن الهداية العصابية قد تحمل فى ظاهرها طابع التسامح والرحمة والعدل، ولكن جوهر العلاقة لم يتغير، وهو التسلط من طرف والخضوع من الطرف الآخر. عموماً فإن بعض التسامح مع النفس ومع الآخرين يضمن الاستمتاع بالاستقرار وقتاً كافياً قبل أن تعود الطبيعة الإنسانية إلى سابق عهدها وتهدم هذا التوازن أيضاً.

١٠

الخير والشر

الآن كل شيء يبدو واضحاً. فالطبيعة من خلال رحلة تطورية طويلة قد زوّدتْ الإنسان بالأنانية الكافية للمحافظة على حياته. وفى نفس الوقت زودته بالإيثار الكافى للتعاون مع إخوانه من البشر. لأن مصلحة الجماعة تصب فى النهاية فى مصلحة الفرد، فتحمى الحياة وتدعم التطور.

كما وجّهتْ الطبيعة الإنسان لأن يبحث عن القيم الإيجابية كالحق والصواب والفضيلة والحب والرحمة والشرف والكرامة والعمل والإنتاج وغيرها خلال تعامله مع الآخرين، ولا يلجأ للقيم السلبية كالخلاف والكراهية والعدوان إلا فى حالات استثنائية ولأغراض دفاعية فقط.

لكن الطبيعة تركت للإنسان ولجهازه النفسى الثقافى حرية تفسير معانى القيم الإيجابية والقيم السلبية المختلفة، حسب الظروف والمتغيرات البيئية واعتبارات الزمان والمكان والاختبارات

الحقيقية المستمدة من الواقع. ومنحته إمكانيات الفهم والشعور والتقييم واستخلاص العبر والدروس والقدرة على التغيير والتعديل والتطوير.

ولكن الجهاز النفسى الثقافى الذى يلعب دور المتلقى فى النصف الأول من العمر لا يكمل مهمته ويلعب دور الصانع المبدع فى النصف الثانى من العمر، لأنه يتعرض لإعاقة شديدة. هذه الإعاقة يقوم بها إنسان آخر صمم على فرض الوصاية على الإنسان الأول، وتمكن من السيطرة عليه وقهر إرادته ودفعه نحو التعثُّر. إن تفسير معانى الخير والشر من وجهة نظر قوة القهر يتم فرضها على المتعثر باعتبارها صنماً مقدساً يجب أن يُعبد. ولما كان هذا الموقف يتناقض مع الطبيعة الإنسانية، فإن شخصية المتعثر تعجز عن النضج، وتنقسم ما بين شخصية طفولية تتعاون من القهر الخارجى فى الشعور، وشخصية خفية تتمرد على القهر الخارجى

فى اللاشعور. ويتحول الصراع المفترض بين الشخص المقهور وقوة القهر الخارجية إلى صراع داخلى بين الفرد المقهور ونفسه. ويتم التعبير عن هذا الصراع من خلال الدورة التعثرية ذات المراحل الخمسة: الطاعة والانحراف والتردد والتمرد والندم.

كل هذا يجعل الإنسان فى النهاية يتشكل على الصورة التى نعرفها جيداً. صورة الإنسان الذى يستميت فى الدفاع عن أوثانه بدلاً من الدفاع عن حريته. ويبالغ فى تدمير ذاته لكى يحمى القوة التى تقهره.

إن كل منا يبحث عن مخلوق قوى يعبده، ومخلوق ضعيف يستعبده، إلى أن نسقط جميعاً فى النهاية تحت أقدام قوة قهر جبارة، تشترينا بأرخص الأسعار، ثم تصنع لنا أوثاننا، وتفرض علينا أن نموت دفاعاً عنها، بدلاً من أن نموت دفاعاً عن حريتنا المسلوبة. إننا نعيش فى الواقع صراعاً ضد أنفسنا،

بدلاً من توجيه طاقاتنا ضد القوة التى سرقت إرادتنا.

الآن نستطيع الاجابة على السؤال المهم: لماذا تُخترق القيم الاخلاقية ؟ أو لماذا يخترق الشر الخير ؟ الإجابة: لان مفهوم الخير والشر مغلوط لدينا.

التعريف المألوف بأن الخير هو طاعة السلطة الدنيوية أو الدينية التى دائماً ما تعرف أكثر لا يجدى. إنه مجرد طاعة غير مشروطة لقوى القهر الخارجية. إنه الهداية التى ينتظرها مخلوق متعثر والتى تحمل صفة القوة والثبات، حتى تمنعه من العودة مرةً أخرى إلى الدورة التعثرية التى استنزفته. ومع ذلك فإنه يعود إليها مراتٍ ومرات. وكلما تشبث بالبقاء مكانه أكثر كلما اهتزت الأرض تحت أقدامه أكثر وأكثر.

والتعريف الأحدث بأن الخير هو التعايش مع الآخر الذى يعتنق قِيَماً ثابتة فى حدود ثقافته، ما دام هو يقبل التعايش مع قِيَمى الثابتة فى حدود ثقافتى، هو مجرد التفاف على الأمور. إنه أشبه بالسماح بتعدد الأوثان بدلاً من عبادة وثن واحد.

هذان التعريفان اللذان قد كُتبا تحت حماية وتهديد قوى القهر المختلفة، هما أقصى ما وصلت إليه الحضارة، وهما السقف الذى لا يمكن لأى فكر أن يتجاوزه دون أن يُعتبر مارقاً.

ولكننا اليوم نملك معلومات عن الطبيعة البشرية بشقيها البيولوجى والثقافى لم تكن متوفرة من قبل. إن مشكلات الإنسان تنشأ ثقافياً حين تتعارض هذه الثقافة مع الطبيعة البشرية، وإذا لم يكن هناك خطأ فى الاستدلالات التى توصلنا إليها، فإنه يمكننا إعادة تعريف الخير والشر كما يلى:

"الخير هو السلوك الذى ينجح فى الاختبار الثقافى، ويتوافق مع الاختبار الطبيعى. وإن اجتياز الاختبار الثقافى هو تحقيق المنفعة للناس على أرض الواقع، والاستعداد للتطور ومواكبة المتغيرات الحياتية المختلفة. أما التوافق مع الاختبار الطبيعى، فهو التوافق مع تمسك الإنسان بالحياة، وتطلعه إلى الحرية، وبحثه المستمر عن الحق والصواب والحب والمعرفة وكل القيم المطلقة المدونة داخل جيناته."

"والشر هو السلوك الذى يفشل فى الاختبار الثقافى، ولا يتوافق مع الاختبار الطبيعى. وذلك لارتباطه بعلاقة قهر، ويؤدى إلى التعثر. وعلاقة القهر هى العلاقة التى تنتج من احتكار جهة ما لامتياز معرفة الخير والشر. إنها العلاقة التى تُقَسِّم البشر إلى أسياد وعبيد. أما التعثر فهو الصراع الداخلى بين الفرد ونفسه، البديل عن الصراع

الخارجى بين الفرد وقوى القهر والتسلط."

أى أن الخير هو كل ما ينفع الإنسان، وكل ما يتوافق مع الطبيعة التى فُطِرَ عليها، وكل القيم المطلقة التى كُتبتْ فى جيناته قبل تدوين الحضارة على جدران المعابد بوقت طويل، وهى الحق والصواب والجمال والحب والعدل والعمل والرحمة والتسامح وغيرها. إنه السلوك الناتج من استخدام الإنسان لقدراته الحقيقية من قلب وعقل وضمير فى العمل والتواصل والإنتاج.

الخير هو السلوك الذى يربط بين الحقوق والواجبات، فلا يأخذ من الحياة إلا ما يستطيع دفع قيمته فوراً بالعرق والجهد والكفاح مهما كانت الإغراءات. إنه السلوك الذى يدعم الحياة ويتجه إلى التطور. والعبرة دائماً بالنتائج على أرض الواقع. فالأداء الخاطىء يؤدى إلى اضطرابات لا يمكن تجاهلها. والإنسان له حق الملاحظة والتقييم

والتعديل. والمرجع النهائى هو حسن حال الإنسان.

والشر هو كل ما يضر بالإنسان، وكل ما يتجاهل طبيعته الإنسانية. إنه السلوك الناتج من عدم استخدام الإنسان لقدراته. السلوك الذى يبتلع الطعم ويستحل ما لا يستحقه، ويستخدم الحيلة أو القوة أو الاستدانة. إنه السلوك الذى يرهن الإرادة، ويتجه إلى الاستعباد.

الخير هو كل سلوك من إنتاج الشخصية المنتظمة الناضجة ذات العقل الموضوعى والطبع الإنتاجى والضمير الإنسانى. والشر هو كل سلوك من إنتاج الشخصية المثبتة طفولياً ذات الطبع الفوضوى والعقل التبريرى والضمير التسلطى، حتى لو ارتدى ذلك السلوك ثوب التقديس والاحترام، وتمتع بقدر مهول من الحماية. لأن هذه الحماية هى الدليل الأول على ضعفه.

الشر يخترق الخير ويتداخل معه ويعمل تحت عباءته. هذه مشكلة لم يحلها العلم أو الفلسفة أو الدين. لهذا حرص المتخصصون على حجز القضية داخل أروقتهم لحماية ضعف حجتهم. هؤلاء الذين يفترض أن يكونوا جزءاً من الحل صاروا جزءاً من المشكلة. والآن نحن نطرح القضية بعيداً عن هذه الحماية.

ليس من الخير أن تظل صغيراً إلى الأبد تنتقل من طاعة إلى طاعة. وليس من الخير أن تنطلق حراً بدون خبرة فتقع فريسة فى يد أول متطفل. كما أنه ليس من الخير أن تجهل ما ينفعك وما يضرك.

المصلحة الحقيقية هى التى تستطيع أن تدفع قيمتها فوراً من تعبك وكدك واجتهادك، ثم تملك الوسائل المناسبة من أجل حمايتها. وإن ما تحصل عليه بالحيلة أو بالقوة أو بالحظ أو بالأجل تدفع ثمنه فى النهاية أضعافاً مضاعفة.

ولقد قامت الحضارة البشرية كلها على أكتاف هؤلاء الناس الخيرين الذين رفضوا العبودية، وتفوقوا على أنفسهم، ونبذوا كل الأفكار اللامعقولة التى تعوق الإنتاجية وتدعم التفكير الغيبى وتعادى التطور. وإن معاداة التطور تعنى معاداة الحياة نفسها.

الآن نرى كم التشويه الذى كان موجوداً فى نظرتنا التقليدية للخير والشر. وكيف أدى ذلك إلى انحراف حضارتنا عن مسارها السليم. فكل سلوك شرير كان يوثّق بأسباب أخلاقية. وكان من السهل دائماً دس السم داخل العسل، ما دام فهمنا لمعنى الخير والشر ناقصاً ومعيباً.

إن الوطنية، والاشتراكية، والديمقراطية، والرأسمالية، والعولمة، والتحضر، والتدين، والإدارة، والاقتصاد، هى ميمات ثقافية ومبادئ أخلاقية ومعتقدات صنعناها وآمنّا بها. أما التعصب،

والسيطرة، والاستبداد، والشره للتملك، والإرهاب، والعنف، والانحلال، والتأميم، والتزوير، والتوَحُّشْ، والاستعمار، والفساد، والربا، والاحتيال، وصدام الحضارات، فهى كلها قيم لا أخلاقية استطاعت اختراق قيمنا الأخلاقية بسبب تعثرنا وانكشاف نقاط ضعفنا، ولأن قوى القهر أرادت تحويل كل القيم إلى أوثان.

إن كل المظالم والصراعات على مر التاريخ كانت تحمل فى البداية عنواناً أخلاقياً قبل أن يتم اختراقها من قِبَل قوى التطفل. وهذا الاختراق مرتبط بنقاط ضعف فى الشخصية الإنسانية أصبح من الممكن رصدُها، بعد أن كان الإنسان المتعثر لا يجد أمامه من حيلة إلا استخدام التبرير العقلى. لأن الاعتراف بمشكلته كان يهدد الأسس التى يقوم عليها توازنه النفسى الزائف ويدفعه نحو الجنون.

المجتمع فى حاجة إلى التصدى لظاهرة اختراق القيم الأخلاقية. فالقوى التى تستفيد من ذلك تعمل بمنتهى الثقة، وتنتقل من نجاح إلى نجاح. والإنسان بالنسبة لها يبدو مثل جثة فى معمل تشريح، يعبث بها مشرط الجراح كيفما يشاء.

يجب على الإنسان أن يعلم بأنه لا يستطيع أن يهرب من نفسه أو يخالف طبيعته دون أن يدفع الثمن. فالعلاقة التعثُّرية بينه وبين قوى التسلط هى التى تقهر قدراته وإمكاناته، وتجعله يتجول تائهاً فى الصحراء، ينتقل من الطاعة إلى الانحراف إلى القلق إلى التمرد إلى الندم، ثم انتظار الهداية التى تأتى إليه من دون أن يتعب فى إعدادها. وفى النهاية يسقط فريسة للطفيليين الذين فهموا حل اللغز، وكافأوا أنفسهم بأن لعبوا دور المنقذ الوهمى، وحققوا للإنسان رغبته، وقدموا له الهداية الوهمية، واستعبدوه مرةً أخرى.

إن السبب فى استمرار هذا الوضع المغلوط هو قناعة الحاكمين والمحكومين معاً بأن تلك هى الطريقة الوحيدة الممكنة للعيش، وأن الإنسان لا يستحق أفضل من ذلك. لهذا فإن الوصول إلى تعريف جديد للخير والشر مبنى على فهم أفضل للإنسان بشقيه البيولوجى والثقافى، هو الطريق الوحيد الممكن لإقناع الطرفين بإمكانية تصحيح المسار، والبدء فى عملية تحطيم الأوثان وتحرير العبيد.

إن القضية يمكن تلخيصها كالآتى: إن القهر يستمد شرعيته من التعثُّر. ولكن لولا القهر ما كان هناك تعثُّر. إذن تسقط شرعية القهر.

المراجع

الأنا والهو، سيجموند فرويد، ترجمة: محمد عثمان نجاتى

مستقبل وهم، سيجموند فرويد، ترجمة: جورج طرابيشى

الحب والحرب والحضارة، سيجموند فرويد، ترجمة: د عبد المنعم الحفينى

قلق فى الحضارة، سيجموند فرويد، ترجمة جورج طرابيشى

مختصر التحليل النفسى، سيجموند فرويد، ترجمة: جورج طرابيشى

النظرية العامة للأمراض العصابية، سيجموند فرويد، ترجمة: جورج طرابيشى

علم نفس الجماهير، سيجموند فرويد، ترجمة: جورج طرابيشى

محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى، سيجموند فرويد، ترجمة: عزت راجح

التحليل النفسى للهيستيريا، سيجموند فرويد، ترجمة: جورج طرابيشى

ثورة الأمل، إريك فروم، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد

المجتمع السوى، إريك فروم، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى

الإنسان من أجل ذاته، إريك فروم، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى

تشريح التدميرية البشرية ،إريك فروم، ترجمة: محمود منقذ الهاشمى

التملك والكينونة، إريك فروم، ترجمة: محمد سبيلا

الدين والتحليل النفسى، إريك فروم، ترجمة: فؤاد كامل

أزمة التحليل النفسى، إريك فروم، ترجمة: طلال عتريسى

الخوف من الحرية، إريك فروم، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد

ما وراء الأوهام، إريك فروم، ترجمة: صلاح حاتم

الإنسان المستلب وآفاق الحرية، إريك فروم، ترجمة: د حميد لشهب

مدخل إلى سيكلوجية الإنسان المقهور، د مصطفى حجازى،

الجديد فى الإنتخاب الطبيعى، ريشارد دوكينز، ترجمة: مصطفى ابراهيم فهمى.

الجين الأنانى، ريتشارد دوكينز ، ترجمة: تانيا ناجيا

العلم والحقيقة، ريتشارد دوكينز، ترجمة: مصطفى ابراهيم فهمى

أزمة نظام، د عبد الحى زلوم

الاقتصاد العالمى الخفى، لوريتا نابوليونى، ترجمة: لبنى حامد عامر

الإنسان الأدنى ، على حرب

الإنسان هو المقياس، روبن آبيل، ترجمة: مصطفى محمود

الحكم بالسر ، جيم مارس، ترجمة: محمد منير إدلبى

الخمسون سنة المقبلة، جون بروكمان، ترجمة: فاطمة غنيم

علم النفس التطورى، دافيد باس، ترجمة: مصطفى حجازى

الطبيعة البشرية والسلوك الانسانى ، جون ديوي ، ترجمة: محمد لبيب النجيحى

علم الاخلاق، باروخ سبينوزا، ترجمة: جلال الدين سعيد

العقائد والذاهب، عباس محمود العقاد

عن الحرية أتحدث، د زكى نجيب محمود

تاريخ موجز للزمن، ستيفن هوكنج، ترجمة: مصطفى ابراهيم فهمى

سيكولوجية الجماهير، جوستاف لوبون، ترجمة: هاشم صالح

التحليل النفسى، كامل محمد عويضة

أصول علم النفس، د أحمد عزت راجح

اللاهوت العربى وأصول العنف الدينى، يوسف زيدان

شبكة الإنترنت



نبذة عن الكاتب

الكاتب هو طارق أحمد حسن، مهندس مصرى ناجح من مواليد الأسكندرية ١٩٥٧ ، متزوج وأب لثلاث بنات.

الكاتب يعتبر نفسه باحثاً فى الفلسفة غير محترف، ولا يهدف إلى الربح. وهو يؤمن أننا نملك اليوم وسائل لفهم الطبيعة الإنسانية جيداً لم تكن متوفرة من قبل.

هذا الكتاب هو المحاولة الثالثة للكاتب. وهو يأمل من خلاله أن يفتح آفاقاً جديدة أمام القاريء، تساعده على التغلب على نقاط ضعفه، واكتشاف قدراته المهملة، وتحرير إرادته المقهورة، واسترجاع حريته المسلوبة.

صدر للكاتب

- التوازن الزائف ٢٠٠٩
- عصر الحكمة ٢٠١٣
- الخير والشر ٢٠١٤

رقم الإيداع / ١٦٣٥٠

الترقيم الدولي/ ٦ ٢٠٠٠ ٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

البريد الألكتروني للكاتب

ta_ah_ha@hotmail.com

الموقع الشخصى للكاتب

www.tarekahmedhassan.com

ما دمنا لا نملك تعريفاً واضحاً لمعنى الخير والشر يقوم على فهم حقيقى للإنسان بشقيه البيولوجى والثقافى، فإن قوى القهر والتسلط سوف تظل تقدم لنا الشر مرتدياً ثوب الخير، ومحاطاً بهالة من الحماية المقدسة.

طارق أحمد حسن